القُوَّتان

قراءةٌ في تاريخنا الوطني

٨٥٠ - ١٤٤١هـ

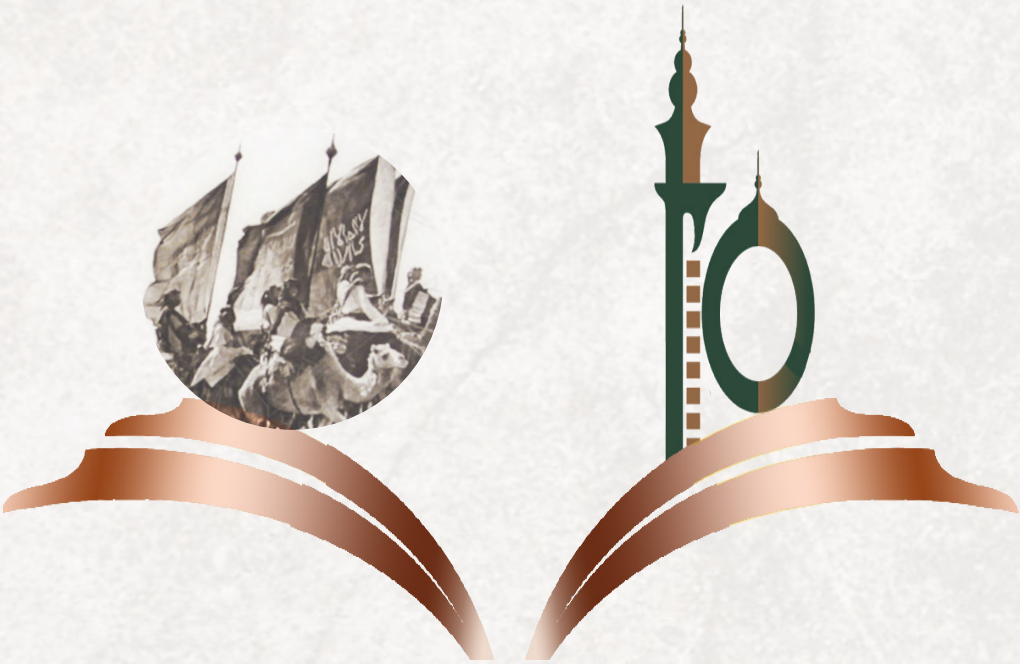

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشنيار

العبيكان

القُوَّتان

قراءةٌ في تاريخنا الوطني

٨٥٠ - ١٤٤١هـ

بقلم

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الشنيار

العبيكان

ⓒ شركة العبيكان للتعليم، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان، عبدالعزيز بن عبدالرحمن

القوَّتان قراءة في تاريخنا الوطني./ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان- ط١.- الرياض، ١٤٤٠هـ

١٨٨ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.

ردمك: ٢-٢٩٨-٥٠٩-٦٠٣-٩٧٨

١- السعودية- تاريخ

أ. العنوان

ديوي: ٩٥٣,١ ١٤٤١/٢١٤٣

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - الرياض

طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

العبيكان للنشر Obeikan Publishing

obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية

سوق amazon إحدى شركات

نون noon

للحصول على كتبنا الصوتية

storytel Kitab Sawti www.kitabsawti.com دار هداد للنشر الإلكتروني

للحصول على كتبنا الإلكترونية

Google Play amazon kindle

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستهلال

«إِنَّ مَـا وَهَبَنِـي اللهُ لَـمْ يَكُـنْ بِسَـبَبِ قُوَّتِـي؛ بَـلْ بِسَـبَبِ ضَعْفِـي وَحَاجَتِـي إِلَـى قُوَّتِـهِ سُـبْحَانَه».

«أنـا قـويٌّ بـاللهِ تعالـى، ثـمَّ بشـعبي، وشـعبي كلُّهـم؛ كتـاب الله فـي رقابهـم، وسـيوفهم بأيديهـم، يناضلـون ويكافحـون فـي سـبيل الله، ولسـت أدَّعـي أنَّهـم أقويـاء بعَددهـم أوعُددهـم، بلأقويـاء -إن شـاء الله- بإيمانهـم».

(الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ)

المحتويات

مقدِّمة الكتاب ٩

مدخل ١٣

تمهيد: البداية والنَّشأة ٢٣

الفصل الأوّل: بيعة الدرعيّة ٣٣

الفصل الثاني: ما بعد البيعة؟ ٤٧

الفصل الثالث: الحسن بن هبة الله المكرمي وتحالف الخصوم الأوّل ـ ٥٥

الفصل الرابع: تشابه المَكْر وازدهار الدولة ٦٣

الفصل الخامس: تحالف الخصوم الثاني وفرحتهم ٧٧

الفصل السادس: السنوات العجاف ٨٩

الفصل السابع: بين الدَّولتين ٩٧

الفصل الثامن: المؤسس الثالث ١١٣

الفصل التاسع: القرار التاريخي ١٤١

الفصل العاشر: شهاداتٌ تاريخيّة ١٤٩

الخاتمة ١٦٩

المصادر والمراجع ١٨٣

مقدِّمة الكتاب

إن التاريخ السعودي في كل أطواره ومراحله حافلٌ بالمعلومات الثرية والحقائق المشرقة، وحَريٌّ بالباحثين قراءته واستنباط تلك الحقائق وهاتيك الدروس الوضاءة، فرجل العلم حين يستغرق في القراءة يجد ثبات الحكام السعوديين على المنهج الفكري الذي قامت عليه الدولة وارتضته؛ كتاب اللّه، وسنة رسوله ﷺ، ويخرج بسفرٍ من المجد العلمي، والجهود الجبارة للحكم السعودي، نحو العلم والفكر في كل الأطوار. ورجل الاقتصاد يجد نماذج من المهارة في إدارة الدولة وتوفير مصارفها، والباحث الاجتماعي يرى العجب العجاب في قدرة الحكم السعودي على

توحيد المجتمع وتقريب أفراده وتأليفهم، وهم من قبائل شتَّى، ومناطق متنوعة لها عاداتها وتقاليدها، وكل باحثٍ يجد سفرًا من المجد، وكمًّا من الحقائق الجديرة بالعرض، والحَرِيَّة بالبسط.

هذا، وسوف أعرض في هذا الكتاب وقفات عدَّة تتناول جوانب متنوعة في تاريخنا الوطني، ودور القوتين الناعمة والصلبة في تأسيس الوطن والذود عن حماه، وقد جاءت مادته في مدخل، وتمهيد، وعشرة فصول، وخاتمة. أحسب أنَّ قراءتها تزيدنا عزةً وفخرًا بتاريخنا الوطني، وتكشف ما يكيده الخصوم منذ بداية التَّأسيس وحتَّى الآن، كما تزيدنا توحُّدًا وثباتًا. كيف لا، والله يُردِّد على مسامعنا في القرآن الكريم أخبار الأمم السَّابقة، ويقول في محكم التَّنزيل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذَّاريات: ٥٥].

إنَّه التَّاريخ فيه تَذكِرة، وهو الوطن فيه العِزَّة، وقد قَرنَ المولى عَزَّوَجَلَّ الخروج من الأوطان بالقتل، فقال:

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [النِّساء: ٦٦]. إنَّها الأوطان، كم هي غالية!

والله الموفِّق.

المؤلف

د. عبدالعزيز بن عبدالرَّحمن الثِّنيَّان

الرِّياض ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

مدخل

القارئ المتأني، والمستغرق المتأمل في تاريخ الدولة السعودية يستنبط عددًا من الحقائق التاريخية، وفيضًا من المعلومات الجديرة بالعرض والبسط، فتلك الجوانب الغائبة لوحات مُضيئة في تاريخ الدولة السعودية، ومما استوقفني من حقائق ما يأتي:

الحقيقة الأولى: تصحيح معلومة يتداولها كثيرون، وهي أن الدولة السعودية بدأت بعهد الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي تولى الحكم عام ١١٣٩هـ، وبعضهم يرى أن بداية الحكم السعودي ببيعة الدرعية بين الإمامين؛ الإمام محمد بن سعود والإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب عام ١١٥٧هـ، والحقيقة تقول: إن البداية كانت قبل ذلك بكثير، فجد آل سعود مانع المريدي أسس إمارة الدرعية

عام ٨٥٠هـ، واستمرت راية الحكم في أبنائه وأحفاده من بعده حتى وصلت اليوم لخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز يحفظه الله فهو سلمان ابن عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي. وبناء عليه، فراية الحكم السعودي تمتد قرابة ستة قرون.

الحقيقة الثانية: هي التنبيه على أن الحكم السعودي لم ينتزع الدولة والسلطة من حكم سابق، وإنما بدايته كانت سهلة يسيرة بدأها الجد الأول لآل سعود مانع المريدي برفق حين كَوَّن إمارة جديدة في الدرعية وأقام الحكم هناك، وحين جاء حفيده الثامن الإمام محمد بن سعود واحتضن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عام ١١٥٧هـ تحولت تلك الإمارة الصغيرة رويدًا رويدًا إلى دولة ذات شأن ومهابة، نقطف -نحن جيل اليوم- ثمار ذاك الغرس

المبارك ! يقول الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لستُ متطفلًا على الرئاسة والمُلك، وإن آبائي معروفون منذ القدم بالرئاسة والمُلك، ولستُ ممن يَتَّكئُ على سواعد غيره في النهوض والقيام، وإنما اتكالي على الله، ثم على سواعدنا يتكئُ الآخرون ويستندُون إن شاء الله»[1].

الحقيقة الثالثة: الحقد على الحكم السعودي وتشويهه، وافتراء الأكاذيب إنما هو قديم منذ بداية بيعة الدرعية، فهو تشويه وطعن في المنهج الذي ارتضاه القادة السعوديون منذ البداية، وتبنَّوه وتفانوا في خدمته، هو الخصومة مع الدين الحق؛ عندما سقطت الدولة السعودية الأولى نكلوا بقوتها الناعمة؛ فعذبوا العلماء وصبوا جام غضبهم عليهم، مزقوا أجسادهم وفتكوا بهم، وكأنهم يُحذرون المجتمع من علمهم ورسالتهم التي يحملونها، لكن أنَّى لهم ذلك، فالله حافظ دينه، وناصر أولياءه، فقد تأبَّى المجتمع، ورفض تلك التُّهم وذاك التشويه؛ ولذا لا غرو

(١) كتاب الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز، ص ١٨٦.

ولا عجب أن تظل حملات التشويه والكراهية باقية حتى اليوم.

إن الفكر لا يُقضى عليه بالسلاح، فقد يجرحهُ السلاح ويُدميه، وقد يُعيقه؛ لكنه خالد باقٍ، فليس العلم أو الدين أمرًا ماديًّا يسهل القضاء عليه؛ بل هو روحٌ تسري في الأجسام فتنعشها وتبث فيها الحياة. زاد الله وطننا ثباتًا ويقينًا.

الحقيقة الرابعة: عندما سقطت الدولة السعودية في المرة الأولى، ثم في المرة الثانية، لم تخلفها في الحكم قوة تَتَخِذُ دينَ الله الحق دستورَها ومنهجَها، وإنما أعملت السيف، واعتمدت القوة الصلبة منهجها، فلم يُمَكِّن لها اللهُ، ورفضها المجتمعُ السعودي الذي اصطبغ بصبغة الله ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]. وبقي المجتمع يترقب عودة القيادة السعودية؛ ولهذا فالحكم السعودي محفوظٌ بحفظ الله؛ إذ لا توجد دولة في التاريخ تسقط مرتين وتعود للمرة الثالثة إلا الدولة السعودية، وذلك

أن الأساس الذي قامت عليه حيٌّ لم يَمُتْ، تعهد الله بحفظه، فبقي الحكم السعودي محفوظًا بحفظ الله للمنهج الذي قامت عليه الدولة السعودية، وهو منهج دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة، وصدقت ربها في ذلك، يقول المؤسس الثاني تركي بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحصَّنت نجدًا عقب ما هي تطرَّا
مصيونةً عن حرِّ لفح المذاري
والشَّرع فيها قد مشى واستقرَّا
ويقرأ بنا درسَ الضُّحى كلُّ قاري

يفتخر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخدمته لدين الله وكيف صار الشرع كائنًا يتمشى في نجد بعزةٍ ومنعة، وشموخٍ وإباء.

ويقول المؤسس الثالث الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنا داعيةٌ لعقيدة السلف الصالح، وعقيدة السلف الصالح هي التمسك بكتاب الله وسُنة رسوله وما جاء عن الخلفاء الراشدين. أما ما كان غير موجودٍ فيها فأرجع بشأنه إلى أقوال الأئمة الأربعة، فآخذ منها ما فيه صلاح المسلمين»[1].

(١) كتاب الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز، ص٢١٦.

واستمر أبناؤه الملوك من بعده كذلك، تقول المادة السابعة من النظام الأساس للحكم: «يستمد الحكم في المملكة العربية السعودية سُلطته من كتاب الله تعالى، وسُنة رسوله، وهما الحاكمان على هذا النظام وجميع أنظمة الدولة».

الحقيقة الخامسة: القرار التاريخي الجَسور الذي عجز عن اتّخاذه حكّام قرونٍ مضت، واتّخذه الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فور دخوله الحجاز عام ١٣٤٣هـ، إنّه القرار الذي يقطف اليوم المسلمون كلُّهم ثمار غرسه، وهو القرار الجريء الذي وحَّد به الملك عبدالعزيز طيّبَ اللهُ ثَراهُ المسلمين قبل أن يوحِّد وطنه، فحين دخل مكة وجد إمامة الحرم متفرّقة؛ كلُّ مذهب يصلِّي بهم إمام منهم، فأوقف ذلك التَّعصُّب المذهبي والتفرق، ووحَّد إمامة الحرم في إمام واحد بعد أن كانوا أئمةً مُتعدِّدين طيلة قرون. إنها العبقرية الفريدة؛ إذ أعاد للمسلمين وحدتهم، وصارت قوَّتهم الناعمة تتجسَّد في مكة المكرمة والمدينة المنورة كلَّ حين، وبات الخصوم

يخشون تلك القوَّة، ويعملون على إضعافها وإخضاعها، ويُشوِّهون برامجها ومشاريعها. تلك القوَّة الناعمة مصدر كدرٍ ونَكَدٍ للأعداء. خَيَّب الله جُهودهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

وبقي في هذا المدخل تساؤلات وردت في أثناء القراءة التأملية، وهي كيف صار لإمارة الدرعية الغلبة والسيادة، ولم يكن الظهور لتلك الزعامات الأقوى من إمارة الدرعية؟

ثم لِماذا تأخرت إمارة الدرعية في التوسع مع أن أجداد الإمام محمد بن سعود يحكمون الدرعية منذ أمد، وسبق أن ظهر بجوارهم الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة، وكان يُعرف بالعُييني نسبة لبلدة العيينة، وذهب إلى الشام وتعلَّم، ولقبه مشايخه وأصحابه من أهل الشام بشهاب الدين لفطنته وغزارة علمه، وصارت له شهرة ومكانة علمية في نجد؛ لما يتمتع به من سعة العلم، وله مؤلفات عدة، توفي عام ٩٤٨هـ، ودفن في الجُبيلة. فأين أجداد الإمام محمد بن سعود من هذا

العالِم؟ ولماذا لم تحتضن إمارة الدرعية هذا العالم البارز! وهو على مقربة منها!؟

لقد كانت إمارة الدرعية غافلة كغيرها من الإمارات الأخرى عن أهم العوامل في بناء الدول، وهو العلم، وهو ما تنبه له الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين وفقه الله لتلك البيعة الشبيهة ببيعة الأنصار لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كانت البيعة عام ١١٥٧هـ؛ إنها البيعة المباركة، والحلف القوي الذي تشكل بين الدين والحكم، بين العلم والسيف، بين القوة الناعمة والقوة الصلبة!

إن الإمارات التي درَّس فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم تتوسع كما توسعت إمارة الدرعية، مع أن بعضها أقوى من إمارة الدرعية، ولديها علماء ومدارس علمية! وأحسب أن السبب في إخفاقها وانكفائها هو الانفصال بين العلم والحكم، بين القوة الصلبة والقوة الناعمة! كان الحكم للسيف وحده، والسيف مهما كان قويًّا فإن القلوب تنفر منه، إن

القوة تكمنُ في كسب القلوب واجتماعها، وليس هناك أمضى وأمكن من الدين الحق؛ دين الحياة الذي أقام دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة.

وفي الفصول القادمة إشارةٌ إلى هذه الحقائق التاريخية، وإجابةٌ عن تلك التساؤلات المُثيرة.

تمهيد

البداية والنَّشأة

يقول عُتبة بن غزوان الصَّحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ولقد رأيتني مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سابع سبعة ما لنا طعامٌ إلا ورقُ البَشَام[1]، وشَوْكُ القَتَاد[2]، حتّى قَرِحت أشداقنا، ولقد التقطتُّ بُردةً يومئذٍ فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقَّاص، ولقد رأيتنا بعد ذلك وما مِنَّا -أيُّها الرَّهط السَّبعة- إلا أمير على مِصرٍ من الأمصار»[3].

إنها هِمَّة الرِّجال، ذاقوا الجوع والخوف، وفي سنوات وجيزة صنعوا المعجزات؛ إن في العودة

(١) البَشَام: شجر طيب الريح والطعم يُستاكُ به.

(٢) القَتاد: شجر صلب له شوك كالإبر.

(٣) الطبقات الكبرى، ج٩، ص٧.

إلى ذاك التاريخ موعظة وتذكرة، كيف والقرآن الكريم يَقُصّ أخبار الأمم السابقة، ويعرض تاريخهم؛ ولهذا يجب علينا أن نرجع في كلّ مناسبة لتاريخنا الإسلامي وتاريخنا الوطني؛ نستنطق أحداثه، ونستعرض وقائعه، فنزهو بالأمجاد، ونعتزُّ بالأجداد، ونستضيء بدروسهم لقادم الأيام. ومن الواجب أنّ نُحَسِّن عرض تاريخنا الوطني، وأن نعرف كيف توحَّدت قُوَّتا البداية والنَّشأة، العِلْم والسَّيف، النَّاعمة والصلبة، وكيف نحافظ على تلك القوَّتين، ونعرف مواطن القوَّة والضعف، وتلك المؤامرات التي تُحاك على بلادنا الغالية باستمرار، وأن نعلم أنّ دوحة الوطن التي نستظلُّ بفيئها، ونقطف ثمارها، إنّما هي نتيجة سنوات من التَّضحية والبناء والجهد والمشقَّة.

قال ﷺ: «عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي»[1].

(١) سنن الترمذي، ٢٦٧٦. باختلاف الرواية: «فمن أدرك ذلك منكم عليه بسنَّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين».

«نَزَل مَلَك الجبال ونادى وسلَّم، وقال: يا محمَّد، إنّ الله قد سَمِعَ قولَ قومِك، وأنا ملَك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شِئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين[1]، فقال ﷺ: بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم منْ يعبد الله وحده ولا يُشرك به شيئًا»[2]. وحقَّق اللهُ رجاءَه؛ فقد خرجت من الأصلاب أجيالٌ بعد أجيال عبدوا الله، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

كانت النَّجوى بين السماء والأرض، بين رسول الله ﷺ والملائكة في قرن الثعالب بين الطائف ومكّة، وهو (ميقات أهل نجد)، وكأنَّ لنجدٍ في عِلم الغيب تاريخًا سيأتي. حدث ذلك وقد قفل رسول الله ﷺ عائدًا من الطَّائف بعد أن آذاه أهلها ورجموه، وتوجَّه إلى ربه بالشكوى والرجاء، فقد لقي في مكَّة الأذى، وفي الطَّائف البلاء، فقال ﷺ: «اللهمَّ إليك

(١) الأخشبان: الجبلان المحيطان بمكّة، والأخشب: الجبل العظيم.
(٢) صحيح مسلم، ١٧٩٥.

أشكو ضعف قوتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على النَّاس يا أرحم الرَّاحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهَّمني، أم إلى عدوٍّ ملّكته أمري. إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكنَّ عافيَتَك أوسعُ لي؛ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدُّنيا والآخرة من أن تُنزِّل بي غضبك، أو يَحِلَّ عليَّ سخطُك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوَّة إلا بك»[1].

وصَبَر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومضى يدعو قومه العرب الأقحاح الذين اختار اللّهُ منهم خاتمَ رُسله، وجعل خاتمةَ معجزاته الخالدة، القرآن العظيم، بِلُغتهم. إنَّ هذا الاختيار لم يكُ مُصادفةً، وإنّما كان لحكمةٍ؛ فخَتْمُ اللّه عَزَّوَجَلَّ الرسالات والمعجزات بالعرب؛ له سِرٌّ يعلمهُ اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو تَكريمٌ وعِلمٌ إلهي، ومسؤوليَّة يجب أن تستمرَّ وتدوم حتى تقوم الساعة؛ فالنبوة خُتِمت في بلاد العرب، والمعجزة بِلُغة العرب؛ ولهذا يجب

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٤٢١.

أن تظلّ بلاد العرب خادمةً للدِّين، وراعيةً للحرمين ولرسالتهما للبشرية. إنّ صفات العرب وسجاياهم التي مَيَّزهم الله بها إذا امتزجت بالإسلام الحقِّ فستجعلهم قُوَّةً مُؤثِّرة؛ قُوّةً تقود العالم، وتنشر العدل، قوَّةً تُحبُّ لغيرها ما تُحبُّه لنفسها، قوَّةً تُؤْثِر على نفسها ولو كان بها خصاصة. حَسدَ يهودُ المدينة العربَ على الاختيار الإلهي، واعترضوا على جبّار السماوات والأرض؛ كيف لا تكون النُّبوة في بني إسرائيل؟ وعاقبهم الله بالذِّلة: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١١٢]. وثبَّت اللّهُ رَسُولَه ﷺ فلم ييأس، وظلّ يبحث عن القوَّة العربيَّة الحسِّيَّة؛ لتُساند دعوة الخير، وتُحقِّق الرجاء. وجاء موسم الحج، وعلى عادته ﷺ يعرض نفسه على القبائل العربيَّة؛ عَلَّهُ يجد القوَّة والمنعةَ، وتدور الأيام وكلُّ عام يعرض نفسه، وعشر سنوات وهو يُلاحق وفود العرب في مكَّة؛ علَّه يجد منْ يستجيب! حتى لقي جماعة من الأوس والخزرج من يثرِب، فتح اللّهُ قلوبَهم فاستجابوا لدعوته، وصارت البيعة. روى ابن إسحق في السِّيرة: «أنّ القوم لما اجتمعوا لِبيعة رسول الله ﷺ

قال العبَّاس بن عُبادة بن نَضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عَوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون عَلامَ تُبايعون هذا الرّجل؟ قالوا: نعم. قال: إنّكم تُبايعونه على حَرب الأحمر والأسود من النّاس، فإن كنتم ترون أنّكم إذا نَهكَتْ أموالَكُم مُصيبةٌ وأشرافَكُم قتلًا أسلمتموه فَمِن الآن، فهو واللّه -إن فعلتم- خِزيُ الدُّنيا والآخرة، وإن كنتم تَرون أنَّكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهكة[1] الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه؛ فهو واللّه خيرُ الدّنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مُصيبة الأموال وقَتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول اللّه إن نحن وفَّينا بذلك؟ قال: الجنَّة. قالوا: ابسُط يدك؛ فبسط يده فبايعوه»[2].

والتقت القوَّتان؛ الروحيَّة والحسِّيَّة، الناعمة والصلبة، العلم والسيف. وصارت البيعة بين النبي ﷺ والأنصار، ثم الهجرة إلى يثرب، ثم كان ما كان

(١) نَهكةُ الأموال: نَقْصُها.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ١-٤، ص ٤٠٥.

من قيام دولة النبوة والراشدين في المدينة المنورة، وانطلقت دعوة الحق، وانداح الصحابة رضوان الله عليهم ينشرون الخير في أرض الله الواسعة، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لم يبقوا في جزيرتهم يتعبدون الله، بل انطلقوا على ظهور الإبل يُخرجون الناس من الظلمات إلى النور، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضِيق الدنيا إلى سعتها، مَضوا ولم يمنعهم حاجز اللُّغة، ولا وسائل النقل، ولا مؤنة الجيوش، مَضوا وفي جيوبهم تُميرَاتٌ، ومعهم أشنّة مياهٍ صغيرة، انطلقوا إلى الدنيا يُؤدُّون الرسالة التي اختارهم الله لنشرها، وبذلوا أنفسهم لدين الله الذي أنساهم التحاسدَ والتنافسَ، فتحدَّوا الدنيا؛ إذ «كانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعًا وثلاثين ألفًا في كل معسكر، وجُموع فارس مئةً وعشرين ألفًا بالقادسية، وجُموع هرقل -على ما قاله الواقدي- أربعمئة ألف؛ فلم يقف للعرب أحدٌ من الجانبين، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم»[1]. وأذهلوا العالم بقوَّتهم التي أخضعت

(١) مقدمة ابن خلدون، ١/٢٨٥.

لدين الله كلَّ القوى. يقول رستم القائد الفارسي حين رأى المسلمين يجتمعون للصلاة: «أكل عمر كبدي يُعلم الكلاب الآداب»[1].

لقد كان المجوس يحتقرون العرب، فلديهم حياة الترف والملك، والعزَّة والمنعة، وخيرات الدنيا، في حين كانت حياة العرب خشونةً وفرقة، وصحراء قاحلة، وقبائل متخاصمة، يتقاتلون سنوات بسبب الرهان على سباق فرسين؛ داحس، والغبراء، ويتحاربون أعوامًا من أجل سهم أصاب ضرع ناقة البسوس. وجاء الإسلام فوحَّدهم وأنساهم الخلافات، وجمع كلمتهم، فكان الدين ترياقًا جامعًا، وجسرًا موحِّدًا، وقُوَّةً أخضعت كل القُوى، وتعاظمت الحضارة الإسلامية واتسعت رقعتها، ودخل الأعاجم في دين الله أفواجًا، ثم انتقلت عاصمة الإسلام من المدينة المنورة إلى دمشق على يد الأمويِّين، وتسمَّت الدولة الإسلامية باسمهم، وكانت الدولة عربيَّة القيادة والوزارة، ورؤساء الجند

(١) مقدمة ابن خلدون، ١/٢٨٥.

كلُّهم عرب، كما كانت عليه الحال في المدينة المنورة في عهد النُّبوة والراشدين، وكانت هناك قوَّة عربية أخرى تزاحم الأمويين على الحكم منذ البداية، ولها حُظوة ومكانة لدى العرب والمسلمين، إنّهم العلويون والعباسيون. وتطور الصراع إلى أن تغلَّب العباسيون، ونقلوا مقرَّ الحكم إلى بغداد، وتسمَّت الدولة باسمهم، وكبرت الدولة الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي، واتّسمت بالقوّة والريادة، ثم جاء العثمانيون، وهم قومٌ من الأتراك من أصولٍ مغولية، وحكموا أجزاء من العالم الإسلامي، وسمَّوها باسمهم.

ونلحظ أنه منذ انتقال مقرِّ الحكم من المدينة المنورة ضَعُفَ ارتباط الحُكم بالقبائل العربية، وعاش أجدادنا الأوائل على الهامش، فلم تكُ هناك حكومة مركزيَّة تضبط الحكم بالجزيرة العربية، وترعى الأمن، وهاجر كثير منهم وضاعوا بين الأمم، وعاش السكان في الجزيرة من حاضرة وبادية سنوات من الإهمال والضياع، وذاقوا الجوع، وناموا وصحَوا مع

الرعب وقلَّة الأمان، وعادت لأغلبهم حياة الجاهلية الأولى، تسودهم القوَّة الصلبة؛ الإغارة، والنهب، والسلب، والخوف، وكأنَّ الرسالة ما نزلت في ديارهم، ونَسوا أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان منهم، وأنَّ القرآن العظيم بِلُغتهِم، وأن عِزَّهُم ومجدهم في خدمة الدين، وصار -واحرَّ قلباه- موسم الحج هو موسم المكسب والمغنم لدى فئةٍ من رجال البادية، فكم من حُجّاج سُلبوا وقُتلوا، وكم من حملةِ حجٍ تربَّص بها السُرَّاق، واستحلُّوا أموالهم ودماءهم، وأصبحت القبائل تأخذ (الخُوَّة) -وهي الضريبة- من كلِّ منْ اجتاز ديارهم، وصارت الطرق مقطوعة، والحياة بائسة، والجهل سائدًا، والخرافة منتشرة، وتشتَّتت القبائل، وصار لكل قبيلة زعامة، ولكل قرية إمارة، وضعفت الحركة العلميَّة، وسادت الخرافة في مناطق كثيرة، وانتشرت الجهالة، وضعُف الدِّين.

الفصل الأوَّل

بيعة الدرعيَّة

مضت السُّنون وحالة الجزيرة العربية في ضياع؛ فالزَّعامات متعدِّدة، والمناطق مجزَّأة، والخرافات منتشرة، ولكن أراد الله الخير لبلادنا، وأراد أن تعود لها الصَّدارة والرِّيادة، وأن تَشرُف بخدمة دين الله، فيعود الأمن والأمان والخير والسلام.

وكان ما كان من دوران الأيام، فانمحت سنواتٌ، وانطوت أعوام، وكان في نجد إماراتٌ متعدِّدة منها إمارة الدرعيَّة التي أسَّسها مانع المريدي عام ٨٥٠هـ، وتعاقب عليها أبناؤه وأحفاده من بعده، وبعد الألف والمئة من الهجرة وُلد في وسط نجد طفلان هما؛ الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والإمام محمد بن سعود، وشاء الله، وقدَّر أن يكون لهما شأنٌ ومكانة،

ففتح الله للطفل الأوّل طريق القوَّة الروحية، ودرب العلم والمعرفة. أمَّا الطفل الثاني فمنحه الله رجاحة العقل وسمات الزعامة، وشبَّ الطفلان عن الطوق، وسار كلُّ واحدٍ منهما في الطريق الذي أراده الله له، فتكونت شخصيتاهما؛ فأكبَّ الفتى الأول على العلم يطلبه، ورَحل إلى الحجاز، ثم مكث في المدينة المنورة مدَّةً من الزمن يقرأ وينهل من بعض علمائها، وامتطى راحلته وسافر إلى العراق والأحساء؛ ليستزيد من العلم والمعرفة هناك، وفي البصرة لقي الأذى والازدراء، فصبر وتحمَّل، واستكمل مسيرته في التحصيل العلمي، ويسَّرَ اللّهُ له العلم، وأحسبه كان يُردد الدعاء الرباني (ربِّ زِدني علمًا). فأنار الله بصيرته، وفتح له باب الاجتهاد والاستنباط، فحمل هَمَّ الدين وتجديده، وعاد إلى دياره وأهله، فساءه واقعهم، فبدأ مسيرة الإصلاح بين عشيرته وقومه في بلدة حريملاء، وصار ينشد الخير وإصلاح المجتمع من حاضرةٍ وبادية، فلقي المقاومة والممانعة والتهديد والوعيد، ثم ترك

حريملاء حين هدَّدوه وهمّوا بقتله، وانتقل إلى إمارة العيينة؛ عَلَّهُ يجد العون والنصر، فلقي بادئ الأمر ترحيبًا وقبولًا، إلا أنّ أميرها ابن معمَّر اضطر لإخراج الشيخ؛ بسبب تهديد أمير الأحساء له، فارتحل ينشد العون والمناصرة.

أمَّا الفتى الثاني فنَمَت لديه مقوِّمات الزَّعامة، ومزايا القيادة، ونشأ في بيت الإمارة والقيادة، جالَسَ الحُكام فتعلَّم منهم، وعاصَر القادة فأخذ عنهم، وجاءته إمارة الدرعيَّة فلم تكُ تصلح إلا له، ولم يكُ يصلح إلا لها، وبات أميرًا لقومه، زعيمًا لجماعته، لكنَّه يمتاز من غيره من الأمراء القريبين منه برجاحة العقل، وعُلوِّ الهمَّة، وبُعد النظر. وتمكَّن من الإبحار بالدرعيَّة والنأي بها عن الصراعات مع المجاورين، واستمرَّ ثمانية عشر عامًا أميرًا لتلك البلدة الصغيرة، شأنه شأن الإمارات الأخرى. تولَّى إمارة الدرعيَّة عام ١١٣٩هـ - ١٧٢٧م، وكانت هذه المدَّة كفيلةً بصقل مواهبه، وإعداده لحدثٍ

عظيم يجعل لبلادنا دور القيادة والريادة؛ ولهذا شاء الله وقدَّر أن يلتقي الرجلان، وتتحد القوَّتان، الناعمة والصلبة، فصارت بيعة الدرعيَّة عام ١١٥٧هـ بينهما؛ إنَّهما الإمامان؛ محمَّد بن عبدالوهاب ومحمَّد بن سعود. وقد جمع الله جهود المحمَّدين، وهداهُما لسُنَّة محمَّد ﷺ ومنهج الراشدين، فاستقبلت الدرعيَّة الشيخ، وتأسست دولةٌ جديدةٌ في بلاد العرب؛ على منهج الدولة الإسلامية الأولى التي نشأت في بلاد العرب، ولتُعيد للإسلام صفاءه ونقاءه، فكان الأساس صلبًا، والركيزة نقيَّةً، وكانت الشريعة دستور الدولة، والمصدر الأساس للحكم. وأحسب أنَّ الإمامين قد صدقا ربَّهما، فبارك الله لهما، وصار القبول. قال الأمير محمَّد بن سعود للشيخ محمَّد بن عبدالوهاب: «أبشِر ببلادٍ خيرٍ من بلادك، وبالعز والمنعة»، فرد عليه الشيخ: «وأنا أُبشِّرك بالعزّ والتمكين، والنصر المبين، وهذه كلمة التوحيد -لا إله إلا الله- التي دعت إليها الرسل كلّهم، فمنْ تمسَّك بها، وعمل بها، ونصرها

مَلَك بها البلاد والعباد... فأرجو أن تكون إمامًا يجتمع عليه المسلمون وذُريتك من بعدك»[1].

يقول سليل أولئك الأوائل الملك سلمان بن عبدالعزيز حَفِظَهُ الله وأعزَّ به دِينه: «هذا الحوار التعاهدي انطلق من أميرٍ أسَّس إمارةً قويَّةً ومستقرَّة ومُهيَّأة لحماية الدعوة، وجعل اتجاهها نحو الدين أساسًا من أُسُسِها، ومن شيخٍ ناصَرَ التوحيد ودعا إليه، وبشَّر بدولة مباركة تقوم على نُصرة كلمة التوحيد. وتمَّت هذه المبايعة بين الأمير محمَّد بن سعود -وهو من جِذْم[2] العرب العدنانيين- والشّيخ محمَّد بن عبدالوهاب -وهو من جِذْم العرب القحطانيين- دون أن يكون ذلك سببًا في حدوثها أو هدفًا من أهدافها؛ لأن الإسلام هو مُنطلقها لا العصبية أو النسب. ويشبه هذا الالتقاء العربي بجِذْمية القحطاني والعدناني في تأسيس الدولة السعودية الأولى ذلك الالتقاء الذي

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ابن بشر، ١/ ٢٤.

(٢) الجِذْم - بكسر الجيم ويجوز الفتح - هو: الأصل. وجمعه: أجذام وجُذوم.

حدث بين المهاجرين والأنصار في الدولة الإسلامية الأولى التي أقامها النبي المصطفى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وأصبحت هذه البيعة ركنًا أساسًا من أركان الدولة السعودية إلى اليوم، بحيث تلتزم بتأسيسها على الدين الصحيح؛ هذا الركن الأساس هو الذي ميز الدولة السعودية من غيرها؛ بحيث لم تقم على إيديولوجية فكرية أو عصبية قبلية أو إقليمية، وإنما قامت على أساس راية التوحيد التي يلتف حولها الجميع من أُسر وقبائل حاضرة وبادية. «ومع أنَّ الإمام محمَّد بن سعود من أسرة تعود في أصولها إلى بني حنيفة، تسكن في الوادي الذي يُسمى باسمها، إلا أنه لم يؤسِّس الدولة على عصبيته أو قبيلته؛ بل تجاوز ذلك ليؤسِّسها على الدين، ويلتزم هو وأبناؤه وأحفاده إلى يومنا هذا بهذا التأسيس وبهذا الامتداد الذي يماثل ما تأسست عليه الدولة الإسلامية الأولى»[1].

(١) الأسس التاريخية والفكرية للدولة السعودية الأولى، ص٣٤، ٣٥.

إنَّه من ذلك التاريخ حين اتَّحدت القوَّتان؛ الناعمة، والصلبة، والدولة السعودية تعتزُّ باتخاذ الإسلام وسنة رسوله ﷺ أساس الحكم، وتذود عن ذلك الأساس، خدمةً لدين الله وتطهيرًا للبلاد من الشركيات والخرافات، فقامت الدولة وشرعت في تنقية البلاد من كل أنواع الشرك، وبدأت بهدم القبَّة التي بُنيت على قبر زيد بن الخطاب في اليمامة، وقطع أشجارٍ كان الناس يتبركون بها، وهم بذلك العمل يشركون ولا يعرفون، ولكنّه الضلال: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]. إنه الضلال الذي حاربه محمَّد بن عبد الله ﷺ، ووقف قومه ضدَّه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]. وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

وفي كلِّ المراحل الثلاث للدولة السُّعودية والقوَّتان في اتِّحادٍ واندماج؛ فدين الله هو الأساس،

ولا يوجد في المملكة أيُّ مظاهر للشرك؛ فلا قبور تُعبَد، ولا مراقد تُزار، حتى قبر رسول الله ﷺ يزوره الزائرون من بقاع الأرض فيجدون المرشدين الذين يُرشدونهم إلى صيغة السلام الشرعية على الرسول ﷺ، فلا تبرُّك ولا توسُّل، إنه الصَّفاء وإخلاص العبادة لله وحده. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وتزداد المملكة عزَّةً بدين الله؛ بأداء شعائره، وتطبيق شرائعه وحدوده، فلا دُور بغاء، ولا حانات خمور؛ إقامةٌ للصلاة في أوقاتها، وجبايةٌ للزكاة، وأمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر؛ عملا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والعجيب اللافت للانتباه أنَّه -في ذلك الوقت- كان يوجد في الأحساء مدارس فقهية وعلماء تعلَّم على أيديهم الشَّيخ محمَّد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما يوجد مثيلات تلك المدارس والعلماء في الحجاز وإمارات الساحل وفي اليمن؛ علماء ودولة كذلك، ووُجد أيضًا في الدرعية قبل زمن الإمام محمَّد بن سعود، وفي عهد أحد أجداده، وهو ربيعة بن مانع المريدي، علمٌ شرعي ومدرسةٌ وعلماء؛ فالشيخ أحمد بن يحيى بن زيد بن عطوة التميمي (ت ٩٤٨هـ) من أشهر العلماء الذين نزلوا في الدرعية، وقد سافر إلى بلاد الشام وأخذ العلم عن عدة مشايخ أجلُّهم الشيخ المحقِّق العلامة شهاب الدين أحمد بن عبدالله العسكري الصالحي الحنبلي (ت٩١٠هـ)، وغيره، وهو أكثر العلماء الذين نقل عنهم وروى عنه كثيرًا. وكان عالم نجد ومفتي العارض آنذاك، وأسَّس مدرسة لتعليم العلم الشرعي

في الدرعية، وأخذ عنه العلم خلق كثير من العلماء ذكرتهم كتب التاريخ، ومنهم أعمام أجداد الشيخ المجدِّد محمَّد بن عبدالوهاب[1] رَحِمَهُ اللَّهُ جميعًا، ومع ذلك لم تتوسَّع الدولة في ذلك الزمن، ولم يكتب لها السيادة والسيطرة، ولعل ذلك يعود إلى أنَّ العلم الشرعي والدولة كانا يسيران في اتجاهين متوازيين، ولكنَّهما منفصلان، ولم تكن بينهما وحدةٌ في الاتجاه والغاية؛ إذ كان لكلٍّ وجهته المستقلة والمنفصلة عن الآخر؛ فلم تستند الدولة إلى العلم أو الدين لتنهض به وتسود.

لكن إمارة الدِّرعية امتازت من غيرها من الإمارات القائمة في تلك الفترة أنها أدركت سرَّ النُّهوض والبقاء

(١) انظر: عالم نجد ومفتي العارض أحمد بن عطوة الدرعي (ت٩٤٨)، نشأته، مؤلفاته، فتاواه، رحلاته، أوقافه، راشد بن عساكر، مجلة الدارة، ع٤، س٣٦، شوال ١٤٣١هـ، ص١٣١. تاريخ المساجد والأوقاف القديمة في بلد الدرعية إلى عام ١٣٧٣هـ، راشد بن محمد بن عساكر، دار درر التاج للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م، ص٧٨، ٧٩. عنوان المجد في تاريخ نجد، ابن بشر، ص١٩٤. الشيخ العلامة أحمد بن يحيى بن عطوة وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، تأليف: علي بن عبدالعزيز الشبل، شبكة الألوكة، ص٥-١٣.

والقوَّة والسِّيادة الكامنة في وحدة الاتِّجاه والغاية بين الدولة والعلم الشرعي الوسطي المعتدل، فاتَّخذت من كتاب الله وسنَّة رسوله منهجها ودستورها، وقدَّمت العلم على الدنيا، وجعلته منهاج حياة، وعامل بقاء، وأساس وحدة الإمارة، وصارت حامية له، وحملت على عاتقها نشر ذلك المنهج المبارك كهدف لها حتى اليوم؛ فصارت لإمارة الدرعية الغلبة الثقافية والفكرية والسياسية على غيرها من الإمارات الموجودة، وهذا هو السرُّ في توسُّع تلك الإمارة وسيادتها.

حين جيء بالهرمزان -أحد قوَّاد الفرس- أسيرًا إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال له عمر:

«يا هرمزان، كيف رأيت الذي صنع الله بكم...؟ قال: يا معشر العرب كنتم وأنتم على غير دين نتعبَّدكم ونقضيكم ونقتلكم، وكنتم أسوَأ الأمم عندنا حالًا، وأخسَّها منزلة، فلما كان الله معكم لم يكن لأحدٍ بالله طاقة»[1].

(١) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ٦٦/٥.

فهذا هو سرُّ الغلبة والتمكين الذي أدركته إمارة الدرعية وغفل عنه مَن سبقها أو عاصرها. ولتأكيد ماذهبنا إليه؛ نعرض ما أورده (فارتيما)، وهو من أوائل الرحالة الغربيين في العصر الحديث يدخل مكَّة المكرمة، ويصل إلى المدينة المنورة ويكتب عنها، ٩١٥هـ/١٥١٠م. وصف مكَّة وما آلت إليه في ذلك الوقت من ضعف وتدهور سياسي واقتصادي، «فلا حول لها سياسيًّا، ولا طول لحكَّامها، ولا ثِقَل عسكري، ولا تملك أيَّ نوع من أنواع القوَّة المادِّية يمكِّنها من معارضة قوى الاستعمار المبحرة في اتِّجاه الشرق الإسلامي. فحكَّامها ضعاف متشاكسون، ليس لهم من القوَّة إلا ما يمكن أن يحسم به أيٌّ منهم النزاعات المشتجرة بين تلك الأسرة التي لا تتعدَّى حدودها السياسية مجاورة الحرمين الشريفين. وأما موقعها المحصور بين البحر وتهامة وسباسب ورمال داخل الجزيرة العربية فلن يفيدهم إستراتيجيًّا في شيء، وإن أرضها جبليَّة وصحراويَّة عجفاء لن تدرَّ على خزائنهم عائدًا

يُذكر»[1]. وكلُّ ما وصلت إليه إمارة مكَّة في ذلك الوقت من ضعف وتدهور كان بسبب أنها جعلت الدين خلف ظهرها، وقدَّمت الدولة والمال على الدين، فضعفت واستكانت، ولم يُكتب لها الظهور والغلبة والسيادة رغم أهمِّية الموقع الجغرافي والمركز الديني الذي تتحكم فيه.

إن الغلبة العسكرية -قديمًا وحديثًا- قد تزول آثارها بالتَّقادم، أمَّا السيادة الدينية، والجذور العقدية الصحيحة فتظلُّ راسخة مهتدية برموز الدولة الربانيين؛ لأنها تستند إلى جذور حضارية عميقة ومتجذِّرة، وما إن تذبل بفعل العوامل والتَّغيرات حتى تنبت مرَّة أخرى؛ فبذورها كامنة في أعماق الثرى؛ ولذا فهي تقاوم التَّغيرات، ثم تستعيد قوَّتها الكامنة في أعماقها مرَّة أخرى لتنبت من جديد، وتوتي أكلها كل حين بإذن ربها، وهذا العامل هو الذي أحيته إمارة

(١) روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، دار الساقي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، الجزء الأول، ص٨٨.

الدرعية واستلهمته من تاريخ الدولة الإسلامية الأول، وسارت على نهجه كما أشرنا، وكان سبب سيادتها وامتدادها وتوسُّعها.

وهكذا شاء الله وقدَّر أن تعود للجزيرة العربية القيادة والزعامة للعالم الإسلامي كما كانت في عهد النبوة والراشدين؛ فقامت الدولة السعودية على أساس الدين والعروبة. وفي كل أطوار الدولة السعودية الثلاثة كان الدين أساس الوحدة، ومصدر الحكم والقوَّة، وكان للعلماء مكانتهم وتأثيرهم.

ولهذا لا غَرو أن تجدَ هذه الدَّولة منذ تأسيسها وحتَّى اليوم المؤامرات والعداوات الظاهرة والخفيّة، العسكريّة والفكريّة، ولكنَّها ما دامت مُعتزّةً بدينها وعروبتها لغة القرآن الكريم فهي باقيةٌ، ومحفوظةٌ بحفظ الله القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الفصل الثاني

ما بعد البيعة؟

بعد الاتِّفاق والتَّحالف، انطلقت الدعوة في المجتمع القريب من حاضرة وبادية، فصحَّحت الأخطاء، ونوَرَّت العقول، وحاربت البِدَع، واستخدمت القوَّة في مقاومة الخرافة وإقامة شريعة الله، واتسعت رويدًا رويدًا، وكان للدولة الفَتِيَّة خصوم، إلا أنّ الدولة، وقد قامت في قلب العروبة وبين القبائل العربية، فإن الدين جَمَعهم. يقول ابن خلدون: «العرب لا يحصل لهم المُلك إلا بصبغة دينيَّة من نبوَّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدِّين»[1]. ويقول: «هُم أصعبُ الأمم انقيادًا بعضهم لبعض؛ للغلظةِ والأنفةِ، وبُعد الهِمَّة، والمنافسة في الرياسة، فقلَّما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين

(١) مقدّمة ابن خلدون، ١/٢٧٣.

بالنبـوَّة أو الولايـة كان الـوازع لهـم مـن أنفسـهم، وذهـب خُلقُ الكِبـر والمنافسـة منهـم، فسـهل انقيادهـم واجتماعهـم، وذلـك بمـا يشـملهم مـن الديـن المُذهِـب للغلظـة والأنفـة، الـوازع عـن التحاسـد والتنافس، فـإذا كان فيهـم النبـي أو الولـي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويُذهـب عنهـم مذمومـات الأخـلاق، ويأخذهـم بمحمودها، ويؤلِّف كلمتهم لإظهار الحقِّ، تم اجتماعهم وحصـل لهـم التغلب والمُلك»[1].

وحصـل الاجتمـاع وتزايـد الإقبـال، ومـرَّت بالدولـة السعودية عَبْرَ مراحلها التاريخية فتنٌ بلغت معها القلوب الحناجـر، وظلَّـت سـنوات تُقـاوم الأطمـاع والشـهوات، وحماهـا الله فـي بدايـة التَّكويـن مـن التَّدخـلات الخارجيَّـة؛ فطـوت الإمارات الصغيـرة، ونمت، واتَّسـعت رقعتهـا، واهتمَّـت بتصحيـح عقائـد النـاس، وإزالـة الخرافـات، فأرسـلت العلمـاء يُعلِّمـون ويُوجِّهون، ولم يكُ مَهْـرُ الوحـدةِ واجتمـاع الكلمـة سـهلًا، فنجد -مثـلًا- أنّ

(١) مقدّمة ابن خلدون، ١/٢٧٣.

إمارة الرياض تمنَّعت، وأميرها دهَّام بن دوَّاس ناصب الدولة العداء، وصار بينها وبين الدرعيَّة خصومةٌ وقتال، وامتد الخلاف سبعةً وعشرين عامًا، بين كَرٍّ وفرٍّ، وإغارة تعقبها إغارة، وقُتل في سنوات الحرب بين الدرعيَّة والرياض من الفريقين نحو أربعة الآف رجلٍ حسبما رواه المؤرخون في تلك الفترة[1]. إنها سنواتٌ صعبة، وأيامٌ مُرَّة.

اسرَح بخيالك، وعُد بذاكرتك لتلك الحقبة، واستحضر واقع البلدتين (الرياض، والدرعيَّة)، ستجد الخوف والحزن، وسترى الطفل ينمو ويشبُّ وهو في حالة القلق والرعب، يرى أهله يُقتَّلون، ويعيشُ نوحَ النساء بفقد الأحبَّة، وينمو الفتيانُ وكُلُّ بلدةٍ تتربَّص بالأخرى. إنَّ النَّعمة التي نعيشها اليوم جاءت بعد أن شرب أجدادنا الحنظل، وأكلوا المُرَّ والصَّبِرَ:

لا تحسب المجدَ تمرًا أنت آكلُهُ
لن تبلُغَ المجدَ حتَّى تلعقَ الصَّبِرا

---

(١) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/٧٧.

إنَّ الرياض التي دارت الحرب بينها وبين الدرعيَّة سنوات كانت مُجزّأةً إلى إمارات عدّة، كل واحدة مستقلَّة عن الأخرى؛ فحيٌّ منفوحة كان إمارة يحكمها زامل بن فارس، وقلب الرياض إمارة يحكمها دهّام بن دوّاس، والدرعيّة إمارة يحكمها محمّد بن سعود، والعيينة إمارة يحكمها ابن معمّر، بل كانت الرياض القديمة قبل الدولة السعودية الأولى متوزّعة إلى إمارات متقاتلة، وقوم متحاربين، يقول الشاعر الشعبي:

ياماحلا مع طلعة الشَّمس باد شعقها

ضرب الهنادي بين مقرن ومعكال

ومقرن -حاليًا- هي المسجد الجامع الكبير ومقرُّ الإمارة وما حولها، ومعكال هي إلى الجنوب قليلًا من مقرن، وبالتحديد هي مقرُّ المحكمة وشارع الفريان وما جاورها، هذه الرياض العاصمة، فكيف ببقية مدن المملكة ومناطقها الأخرى، أحسبهم كما قال الشاعر الجاهلي:

وأحيَانًا على بَكرٍ أَخِينا إذَا مَا لَم نَجِدْ إلا أخانَا

يقول الريحاني: «وكانت بلاد نجد والأحساء مُقطَّعة الأوصال، مُشتّتة الأحوال، لا صِلة لقبيلة بأخرى تُثمر خيرًا أو تدوم، ولا بين الحواضر المستقلَّة بعضها عن بعض صِلاتُ ولاءٍ إلا نادرًا.

لم يكن -والحقُ يُقال- غير السيف فاصلًا واصلًا، ولم يكن غير الغزو سبيلًا إلى الاستيلاء، وسبيلًا رحبًا إلى الرزق والثراء.

أجل قد كان القتل؛ طمعًا بالاستيلاء، من الأمور المألوفة. وهناك بيتٌ من الشعر طالما سمعتُ أمراء العرب يتمثّلون به:

بِسَفكِ الدِّمَا يا جارتِي تُحْقَنُ الدِّمَا
وبالقتلِ تنجو كلُّ نَفسٍ مِن القتلِ»[1]

انتهى ما ذكرهُ الريحاني.

وبعد، فإن واقع بلادنا قبل قيام الدولة السعودية الأولى قد عاد بها إلى الوراء، إلى العصر الجاهلي؛

(١) تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ص٦١.

حيث العصر القَبَلي، وفقدان الرابطة الجامعة والوحدة البانية، لقد كان الدين موجودًا، لكن شابته الخرافة، وغشَّاه الدَّجل والدَّروشة، ولم تعد له القوَّة الروحيَّة المؤثِّرة؛ ولهذا ما إن جاءت الحركة الإصلاحيَّة، ورأى الناس الحقيقة حتى تسارعت الحواضر والبوادي إلى الانضمام للدولة؛ كيف لا، والدولة قد شرعت في بناء الأمة بالعلم والفكر قبل السَّيف، تُرسل لكل بلدة عالمًا، وتفتح في كل قريةٍ مدرسةً، تفتتحها في المساجد. لقد تحوَّلت المساجد إلى مراكز للعلم والمعرفة كما كانت في عهد النُبوَّة والراشدين؛ ولهذا تأثَّر الناس وتقاطروا نحو الدرعيَّة، ينشدون المزيد من العلم والمعرفة، ويؤكِّدون للإمام محمَّد بن سعود الولاء والبيعة، فصار العلم والرخاء والخير في الدرعيَّة. يقول المؤرِّخ ابن بشر: «ولما كَثُر المهاجرون عند الشَّيخ ضاق بهم العيش وشدَّة الحاجة، وابتُلوا في ذلك أشدَّ بلاء، فكانوا بالليل يحترفون ويأخذون الأجرة، وفي النَّهار يجلسون عند الشَّيخ في درس الحديث والمذاكرة، إلى أن أتاه الله بالرزق الواسع بعد الشدة والامتحان، ولقد رأينا

الدرعيَّة بعد ذلك في زمن سعود بن عبدالعزيز بن محمَّد بن سعود رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وما فيه أهلها من الأموال وكثرة الرجال والسلاح المُحلَّى بالذهب والفضة، وعندهم الخيل الجياد، والنَّجايب العمانيات، والملابس الفاخرة، والرَّفاهيات ما يعجز عن عدِّه اللسان، ويكلُّ عن حصره الجنان والبنان»[1]. ويقول ابن بشر كذلك: «ولقد نظرت إلى موسمها يومًا وأنا في مكان مرتفع، وهو في الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود والمعروفة بالطَّريف، وبين منازلها الشرقية المعروفة بالبجيري التي فيها أبناء الشيخ، ورأيت موسم الرجال في جانب، وموسم النساء في جانب، وما فيه من الذهب، والفضة، والسلاح، والإبل، والأغنام، وكثرة ما يتعاطونه من صفقات البيع والشراء، والأخذ والعطاء، وغير ذلك. وهو مدُّ البصر لا تسمع فيه إلا دويَّ النَّحل من النجناج[2]، وقول: بعتُ، واشتريت. والدَّكاكين على جانبيه الشرقي والغربي،

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/ ٢٥.

(٢) النجناج: تداخل الأصوات.

وفيها من الهِدِم[1] والقماش والسلاح ما لا يُوصف. فسبحان من لا يزول سلطانه وملكه»[2].

إنّ تأسيس الدولة السعودية الأولى كان مُعجزة، والقراءة في تاريخها يحكي قصصًا من الإعجاز والتحدّي، وإنَّ استعراض بعض المواقف يجلو الصورة، ويجسِّد الأحداث للعظة والعبرة.

(١) الهِدِم: الملابس (عامِّية).

(٢) عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/ ٢٥، ٢٦.

الفصل الثالث

الحسن بن هبة اللّه المكرمي وتحالف الخصوم الأوَّل

تأتي سنوات البلاء والشدّة لِحكمةٍ يَعلمها اللّه سبحانه؛ فرسول اللّه ﷺ أصابه الحزن، ومسَّته الضراء، فقد أُصيب بفقد أحبته، وأُدميَت قدماه الشريفتان، وكُسرت رُباعيته، وانهزم أصحابه في أُحد، وقُتل منهم كثيرون، وصَبَر وثبَّتَ أصحابَهُ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٥٥]. والدولة السعودية الأولى لقيت ما لقيت من الأهوال والأحداث ما تشيب له نواصي الولدان، ففي عام ١١٧٧هـ؛ أي بعد قرابة عشرين سنة من بَيعة الدرعيّة، وحينما كانت الدولة آخذةً في نشر العلم ومحاربة الجهل، وفي أثناء عودة الأمير عبدالعزيز بن محمَّد قائد قوات الدولة من إحدى

غزواته تلك السنة، عَلِمَ أنّ تعدّيًا قامت به مجموعةٌ من إحدى القبائل المُوالية للحسن بن هبة الله المكرمي حاكم نجران على إحدى القبائل التابعة للدولة، ونهبوا أموالهم، وكان ذلك إخلالًا بأمن الدولة، فتبعهم الأمير عبدالعزيز، ولحق بهم في (حَدْبا قُذلة) غرب مدينة الرياض بالقرب من القويعية، وتمكّن من رد المنهوبات، وقَتَل بعض المعتدين، وأسَرَ قرابة مِئتي رجل، ووصل الخبرُ لأمير نجران الحسن بن هبة الله المَكْرمي، واستثاروا حميّتَه، وحرّكوا نخوته، فجمع رجاله من بدو نجران وحضرها، والتفَّ معه في الطريق آخرون، وتوجّه بهم الى نجد، وقصد بلدة الحائر، وذكرت بعض المصادر أنّ عدد جنوده اثنا عشر ألف مقاتل بين فارسٍ وراجل، وبَلَغ الخبر الدرعيَّة فجهز الإمام محمَّد بن سعود جيشًا بقيادة ابنه الأمير عبدالعزيز، قيل إنّ عددّه أربعة آلاف مقاتل، وأسرع الجيش السعودي لصدّهم عن بلدة الحائر الواقعة جنوب الرياض بأربعين كم تقريبًا، ولكن الجيش النجراني سبقهم إلى البلدة، ودخلها في ربيع الآخر عام ١١٧٨هـ، وحين وصل الأمير عبدالعزيز

سُقط في يده؛ فالبلدة سقطت، والقوات أمامه كبيرة، ولا يمكن العودة ومعه جمعٌ من الشباب المتوقّد حماسةً واندفاعًا؛ ولهذا كانت المنازلة والمصادمة، وتصاول الأبطال وتلاقى الفرسان، وصار كَرٌّ وفر، وصيحاتٌ ونخوات، والتحم الجيشان، وتمكّن النجرانيون من الانتصار؛ فالقوّة غير مُتكافئة، وتقول الروايات إنه قُتل من الجيش السعودي خمس مئة رجل، وأُسِر ست مئة رجل، واستولى حاكم نجران على مجموعة كبيرة من بنادقهم وسيوفهم، وتمكّن الأمير عبدالعزيز بن محمّد من الانسحاب ببقية الجيش والعودة الى الدِّرعيَّة، وحين وصل الأمير عبدالعزيز التقى الشيخَ محمَّد بن عبدالوهاب، واجتمع السيف والعِلم، وطمأنَه الشيخ وتلا عليه الآية: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١]. وصبَّره الشيخ وثبَّته، وقوَّى عزيمته.

أما الحسن بن هبة الله فقد انتشى وقرَّر السّير إلى الدِّرعيّة والقضاء على الدولة، وتلك من سنوات الشدَّة والتَّمحيص، فقد وصل النَّجرانيُّ إلى الرياض، وكانت آنذاك تحت إمرة دهَّام بن دوَّاس، وكان الأمير عبدالعزيز بن محمَّد قد بَنى في غرب الرياض حاميةً بموقع اسمه (الغذوانة) للهجوم منها على الرياض، أصبح هذا الموقع حاليًا جزءًا من أحياء مدينة الرياض الغربية (حي سلطانة). وحين وصل الحسن لمكان الغذوانة عَسكَر فيها أيامًا استعدادًا للهجوم على الدِّرعيَّة، والقضاء على الدولة. وبعد استقراره جاءه المكر والكيد والتَّآمر والتَّخابر، فقد وَفَد عليه أمير الرياض دهَّام بن دوَّاس، ثم جاءه أمير الخرج زيد بن زامل، وجاءه كذلك شيخ قبائل الظفير فيصل بن سويط، وأثنوا عليه وشجعوه على الهجوم على الدرعيَّة ووعدوه بالمُؤازرة، وعرضوا عليه مُخاطبة حاكم الأحساء عريعر بن دجين لينضمَّ إليهم في الهجوم على الدرعيَّة، فكتب دهَّام بن دوَّاس إلى حاكم الأحساء لينضمَّ إلى التَّحالف، وصارت المكاتبات بين الحسن وحاكم الأحساء، وأصبح التَّحالف يتشكَّل،

والقوَّة تتوافد، والخطر يشتدُّ، وبات القضاء على الدولة وشيكًا، وأصاب الذعر والخوف أتباعَ الدولة ومُحبّيها، فكيف الخلاص وكيف التّصدي؟ فهل يمكن تجميع تحالف مماثل؟ وهل يمكن حشد قواتٍ تتصدَّى؟ إلا أنَّ العقل والرأي كانا فيصلي تلك الأيام الحرجة؛ فالدرعيّة تعلم أنّها لا تستطيع التَّصدِّي لتلك القوَّات التي تتجمَّع، وقد هُزمت في الحائر على يد قوَّات الحسن، فكيف بالقوَّات الإضافية والأنصار الآخرين؟ إنَّها خمس قوى يدفع بعضها بعضًا، وكأنّهم الأحزاب وقد تجمّعوا حول المدينة المنورة، وبلغت القلوب الحناجر، ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

إنَّ تَجمُّع الخصوم حول الحسن بن هبة اللّه تحدٍّ كبير وخطرٌ عظيم، لقد زَيَّنوا للحسن الإقدام، ومَنَّوه بحكم المنطقة كلِّها؛ ولكن العناية الربَّانية ألهمت القيادة آنذاك نور البصيرة، وبُعد النظر، فالوضع حرجٌ

للغاية، والدولة لا زالت صغيرةً، وفي طور التَّكوين، وتلك القوى المجتمعة تفوقها أضعافًا مضاعفة، لقد تصرَّف الأمير محمَّد بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ بمهارةٍ ودبلوماسيةٍ وَقَّادة، فصار التواصل مع أحد أعضاء التَّحالف مع فيصل بن سويط، -وأحسب أنَّهم اختاروه؛ لأنه أخفُّهم عداوة، فهو أمير قوم لا يُخشَى ضياع مركزه المكاني، كما يخشاه أُمراء الحواضر- واستجاب بن سويط، والتقى بقادة الدرعيَّة، وطلبوا منه التوسّط بينهم وبين الحسن بن هبة اللّٰه بطريقةٍ تحفظ لكل طرفٍ مكانته وأمنه، وجرت المفاوضات بسرِّية وَرَويَّة، ونصَّ الاتِّفاق على انسحاب الحسن بن هبة اللّٰه وعودته إلى نجران، ويُطْلِق سراح الأسرى السعوديين، على أن تُطلِق الدولة السعودية أسرى (حدباء قذلة)، وتدفع له مبلغًا من المال، وعددًا من الخيول، ووقِّعت الاتفاقية ونُفِّذت بنودها، وطوى الحسن خيامه وقفل عائدًا إلى نجران، وتفاجأ خصوم الدولة بالانسحاب، وانفلَّ جمعهم، وبطل تدبيرهم، وفَرح أتباع الدولة بخذلان التَّحالف.

يقول المؤرِّخ الشاعر ابن غنَّام المُعاصر لتلك الحقبة:

وانقضَى راجِعًا بخِزيٍ وذلّ منْ أتى غازيًا مع النَّجراني

وكان من آثار غزو الحسن بن هبة اللّه وانتصاره في الحائر، وتجمُّع التحالف الذي أبطل اللّه شأنه، أن تَشجَّع حاكم الأحساء عريعر بن دجين لغزو الدرعيَّة؛ ولهذا ساءَه رحيل الحسن بن هبة اللّه، وأرسل إليه يطلب منه البقاء، ويُرغِّبه في حرب الدرعيَّة، ولكن حاكم نجران ردَّ عليه أنه مُلتزم بالاتفاق مع السعوديين. ولم ييأس عريعر، فكتب له ثانيةً يدعوه للعودة ويُمنِّيه بأفضل النتائج إنْ تعاونَ مع تلك القوى المتحالفة، إلا أنَّ حاكم نجران رفضَ العودة، وأكَّد أنه ملتزمٌ بالاتِّفاقية مع قادة الدولة السعودية، وحين ذلك صمَّمَ عريعر على مهاجمة الدرعيَّة بقوَّاته، وبمساعدة القوى الأخرى التي تُناصب الدولة السعودية العداء، وأصاب أهل الدرعيَّة الهمَّ والغمَّ، يقول ابن غنَّام:

لقَد زاغتِ الأبصارُ ساعةَ أقبلتْ
بنو خَالدٍ أظعانُها وظَعينُها

يقول الريحاني: «وقد كان عريعر صاحب مكرٍ وحيلة، بل كان مُخترعًا. فبعدَ أن حاصرَ الدرعيَّة شهرًا دون نتيجة يُشْكَرُ عليها اخترع آلة جديدة للحرب سُميت الزحافة، وهي صندوقٌ من خشب يسير محمولًا على دراجات، يجلس فيه من العشرة إلى العشرين رجلًا وهم في أمنٍ من رصاص العدو، فيسوقونه إلى السور يريدون هدمه. وما أشبَه زحافة عريعر بدبابة اليوم. ثم حاول عريعر أن ينصب مدفعًا كبيرًا يدمِّر به الدرعيَّة، فأمر بجمع الحديد والنحاس لهذه الغاية وباشر العمل. شبَّت النيران، ونفخت المنافخ، وذابت في المراجل المعادن، ولكنّها في النهاية صدَّت الطالب، وعَصَت القالب. قال مؤرِّخ ذلك الزمان: [كلما أفرغها في القالب أبَت]»[1].

وعاد عريعر إلى الأحساء، وانفضَّ جَمعه، وخاب تدبيره، وحفظ الله الدرعيَّة وأهلها، فالباطل يلتقي، لكن الصدق مع الله، والركون إليه، ووحدة القلوب أبطلت تلك التحالفات.

(١) تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ص ٤٥، ٤٦.

الفصل الرابع

تشابه المَكْر وازدهار الدولة

ومَضَت الدولة في منهجها تنشر العلم، وتضم المزيد من الإمارات المتناثرة، فاشتدَّ بناؤها واتّسعت رقعتها، ودخلت في عباءتها تلك الزعامات المتفرِّقة، والقبائل المتخاصمة، وتزايدَ الخصوم فكادوا ومكروا، ونجح كيدهم مرَّات، فوقع البلاء، ولكن كان اللّٰه يحفظ النشاط ويُجدِّده، وتصير تلك البلاءات تمحيصًا.

ومن الإصابات المُوجعة نجاح تدبير الخصوم بقتل رئيس الدولة الإمام عبدالعزيز بن محمَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ففي العشر الأواخر من شهر رجب عام ١٢١٨هـ، وحينما كان الإمام الوقور يَؤمُّ المصلين بمسجده في حي الطريف بالدرعيَّة، وإذا بعلج يقفز عليه في المِحْراب فيطعنه طعنات عدَّة كما طَعَن العِلْجُ السابق في المدينة المنورة عُمرَ بن الخطاب

وهو ساجدٌ طعنات عدَّة، ويموت عبدالعزيز كما مات عمر. هم المجوس كادوا للدولة الإسلامية في المدينة، ويكيدون للدولة السعودية، ولا زال مكرهم يتكرَّر، ردَّ اللّٰه باطلهم، وجعل كيدهم في نحورهم.

لقد كانت الدولة في عهد الإمام عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد استقرَّت، وعمَّها الأمن والأمان، وازدهر فيها العلم والمعرفة. يروي ابن بشر أنه رأى مجالس العلماء في الدرعية وعندهم طلبة علم من أهل الدرعيَّة ومن أهل الآفاق؛ من أهل صنعاء وزَبِيد واليمن وعُمان وغيرهم من نواحي نجد والأقطار ما يُفضي لمن حكاه إلى التكذيب[1]. ويقول: «كان الإمام عبدالعزيز كثير العطاء على أهل العلم وطُلابه ومُعلِّمي القرآن الكريم، وكان الصبيان في الدرعيَّة إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إلى الإمام عبدالعزيز يَعرِضون عليه خطوطهم، فمن تحاسن خطُّه أعطاه جزيلا، وأعطى الباقين دونه»[2].

(١) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/١١٧.

(٢) المصدر نفسه، ١/١٧٣.

يقول الريحاني: «ظلَّت الدرعيَّة قُطبًا للعلم والتعليم إلى يوم دمَّرها إبراهيم باشا المصري. وبعد أن استوطنها الشيخُ، شرع يُكاتب الرؤساء والمشايخ، يُحذِّرهم من الشِرك ويدعوهم لدين الله ودين التوحيد. وكان سليمان آل محمَّد أمير الأحساء، وابن مقلق أمير القطيف، وابن ثويني أميرًا في البصرة، وابن دوَّاس حاكمًا مُستقلًا في الرياض -وكلُّهم أعداءٌ لمذهب التوحيد- هُم الأمراء الأعداء. وهناك العُلماء السُنيون والشِّيعيون الذين سخروا منه، وافتروا عليه، وشرعوا يتَّهمونه بما اتُّهم به الخوارج من قبل، حتى إنَّ بعضهم سعى لدى الحُكام لقتله»[1].

وعن قُوَّة الأمن، يحكي ابن بشر صورًا توضِّح كيف بلغت قُوَّة الأمن في عهده، فيقول: «أتى حاجٌّ من العجم ونزل قُرب ديار سبيع، فسُرق من الحاج غرارة فيها من الحوائج ما يُساوي عشرة قروش، فكتب صاحب الغرارة إلى الإمام عبدالعزيز يُخبره بذلك،

(١) تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ص٤٣.

فأرسل إلى رؤساء تلك القبيلة، فلما حضروا عنده قال لهم: إن لم تُخبروني بسارق الغرارة وإلا جعلت في أرجلكم الحديد، وأدخلتكم السجن، وأخذت نكالًا من أموالكم، فقالوا: نغرمها بأضعاف ثمنها، فقال: كلا حتى أعرف السارق. فقالوا: ذَرنا نصل إلى أهلينا ونسأل عنه ونُخبرك، ولم يك بُدٌّ من إخباره، فلما أخبروه، أرسل إلى ماله وكان سبعين ناقة فباعها وأدخل ثمنها بيت المال، وجيء بالغرارة لم تتغير، وكان صاحبها قد وصل إلى وطنه، فأرسلها عبدالعزيز إلى أمير الزبير، وأمره أن يُرسلها إلى صاحبها في ناحية العجم.

ويروي الشيخ عثمان بن منصور: أنَّ مجموعةً من أبناء البادية وجدوا عنزًا ضالة في رمال السر وهم جياع، وأقاموا يومين أو ثلاثة مُقْوِين بدون أكل والعنز أمامهم، فقال بعضهم: لينزل أحدكم على هذه العنز فيذبحها لنا لنأكلها، فكلٌّ منهم يقول لصاحبه: انزل

إليها فلم يستطع منهم النزول خوفًا من العاقبة على الفاعل، فألحَّوا على رجلٍ منهم، فقال: واللّه لا أنزل إليها ودَعوها؛ فإن الإمام عبدالعزيز يرعاها، فتركوها وهم في أشدِّ الحاجة إليها»[1].

ويتولى القيادة بعد الإمام عبدالعزيز ابنه الإمام سعود، فتزداد شمس البلاد سطوعًا وضياءً، وتتسع حدودها لتزيد عن مساحة المملكة الحالية من كل الجهات، ويزدهر العلم؛ فالإمام سعود عالم. يقول المؤرخ ابن بشر: عن مجلس الإمام سعود: «ويقرأ اثنان في تفسير ابن كثير ورياض الصالحين، ثم ينهض الإمام سعود ويشرع في الكلام على تلك القراءة، ويُحقِّق كلام العلماء والمفسرين، فيأتي بكل عبارة فائقة، وإشارة رائقة فتمتدُّ إليه الأبصار، وتحير من فصاحته الأفكار، وكان من أحسن الناس كلامًا، وأعذبهم لسانًا، وأجودهم بيانًا»[2]. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطيبًا

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/١٦٩، ١٧٠.

(٢) عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/٢٢٩.

بارعًا. يقول ابن بشر عن سنة ١٢٢٥هـ «وحججت في تلك السنة وشهدت سعودًا وهو راكب مَطيَّته مُحرِمًا بالحج، ونحن مجتمعون في نمرة لصلاة الظهر، وخطب فوق ظهرها خطبة بليغة، ووعظ الناس فيها وعلَّمهم المناسك، وذكَّرهم ما أنعم الله عليهم به من الاعتصام بكلمة لا إله إلا الله، وما أعطى الله في ضمنها من الاجتماع بعد التفرُّق وأمان السبيل، وكثرة الأموال، وانقياد عُصاة الرجال، وإن أضعف ضعيف يأخذ حقَّه كاملًا من أكبر كبير من مشايخ البوادي، وأعظم عظيم من رؤساء البلدان. ونادى -وهو على ظهرها- لا يُحْمَلُ في مكَّة سلاح، ولا تتبرج امرأة بزينة، وتوعَّد من فعل ذلك من جميع رعيته، ورأيت الشريف غالب أقبل فوق حصانه، ونحن جلوس في الصف وليس معه إلا رجل واحد، ونزل سعود من كُور مطيته وسلَّم عليه وتعانقا، وسلَّم عليه المسلمون، فأُقيمت الصلاة جمعًا، وقصدنا بعدها عرفة، ودخل سعود بعد ذلك مكَّة، وسار فيها سيرة حسنة بالأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، والصدقات والعطاء والرأفة بأهلها، وجعل في الأسواق رجالًا وقت الصلاة يَحضونهم عليها، فلا تجد فيها وقت الصلاة مُتخلفًا إلا نادرًا»[1].

هذا والنَّاس يتأثَّرون بقادتهم؛ ولهذا ازداد الإقبال على العلم في زمانه، وازدهرت مجالس العلماء، وتوافد إليها الناس يَنهلون من مَعينها، ويُعيدون مجد الحضارة الإسلامية، وتوسَّعت الدولة في عهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ واشتدَّ عودها.

وانقادت القبائل العصيَّة للدرعية، يقول الراوي عن حقبة الإمام سعود: «إذا صَدر أمره على قبيلة من قبائل بوادي نجد العظام كمطير، وعنزة، وقحطان، وغيرهم، وهم في أقصى الشمال، أن يرحلوا وينزلوا في الجنوب أو الغرب، لم يُمكِنهم مُخالفته، ونشأ على ذلك الصغير وشاب فيه الكبير»[2]. وقال الراوي: في غزوة الحناكية سنة ١٢٢٨هـ، وقد اجتمعت القوات السعودية

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ١/٢٣١.

بقيادة الإمام سعود: «جلس يومًا فيصل بن وطبان الدويش رئيس أعراب مطير، والحميدي بن هذال رئيس بوادي عنزة، وكان هؤلاء من أشد البوادي عداوة لبعضهم بعضًا... وتنازعا بين يديه وتفاخرا، وأظهرا نخوة الجاهلية، فقال أحدهما لصاحبه: احمدِ الله على نعمة الإسلام وسلامة هذا الإمام -يقصد الإمام سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ - الذي أطال الله عمرك بسببه، وكساك الشيب بعد أن كان آبَاؤُكُم لا يشيبون ولا ينتهون إلى حدِّه، بل نقتلهم قبل ذلك. قال الآخر: احمدِ الله على نعمة الإسلام وسلامة هذا الإمام الذي كثَّر الله بسببه مالك، وَسَلَّم عيالك، ولولا ذلك لم تملك ما هنالك، ولا نزلت في تلك الديار، ولا استقر بك فيها قرار، فانتهض الإمام سعود فزجرهم وذكَّرهم ما أنعم به عليهم من الإسلام والجهاد والجماعة والاجتماع على الصلاة... وأمان السبيل، وأن الرجل من أبناء البادية يترك خيله وإبله في أي موضعٍ شاء لا يخشى عليها أحدًا إلا الله تعالى، فانكفوا عمَّا هم فيه

وتراجعوا الحديث»[1]؛ أي حديث العصبية والفرقة، فقد جَمع رَحِمَهُ ٱللَّهُ القبائل، وأذاب نخوة الجاهلية، ومحا عصبية القبيلة، وصَفَت القلوب، وتعايش الناس بأمنٍ وطمأنينة وفي رخاءٍ وسكينة، وبات طريق الحاجِّ إلى مكَّة سالكًا آمنًا، يأتي الحجَّاج من العراق ومن كلِّ بلاد الدنيا، ويجتازون الصحاري لا يتعرَّض لهم أحد، كما ترسو البواخر في جدَّة، وينزل الحجَّاج والمعتمرون آمنين مطمئنين.

إنها الدولة السعودية التي نشأت بعد بَيعة الدرعيَّة، صَدَقت مع ربِّها فأعزَّها اللّه، وجعلت رسالتها خدمة دين اللّه فحفظها اللّه. وفي قراءةٍ لكتب التاريخ عن واقع الحجّ قبل الدولة السعودية يتضح بركاتها منذ إنشائها، يقول الطبري في تاريخه: «كان يُؤخَذ من الحُجاج الشيء الكثير، ومن عجز عن آدائه حُبِس، فربما فاتَه الوقوف بعرفة»[2].

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ١/٢٣١، ٢٣٢.

(٢) تاريخ الطبري: أحداث سنة ٥٧٤هـ.

مسكينٌ ذاك الحاج، بعد أن وصلَ إلى الديار المُقدسة، وتكبَّد عناء السفر، وصارت المشقَّة، يُحجَز عن يوم عرفة؛ لأنه لم يدفع. ويقول ابن جبير في رحلته التي بدأها من الأندلس في يوم الإثنين التاسع عشر من شهر شوال عام ٥٧٨هـ: «وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فِرَقٌ وشِيعٌ لا دين لهم قد تفرَّقوا على مذاهب شتَّى. وهم يعتقدون في الحاجِّ ما لا يُعتَقد في أهل الذِّمَّة، قد صَيَّروهم من أعظم غَلَّاتهم التي يستغلُّونها: ينتهبونهم انتهابًا، ويُسَبِّبُون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابًا؛ فالحاجُّ معهم لا يزال في غرامة ومؤونة إلى أن يُيسر الله رجوعه إلى وطنه»[1].

ويقول: «فمن يعتقد من أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيحٌ لهذا السبب، وبما يُصنَع بالحاج ممَّا لا يرتضيه الله عَزَّوَجَلَّ، فراكب هذا السبيل راكب خطر ومُعتسِف غَرَر[2]. والله قد

(١) رحلة ابن جبير، ص ٥٤.

(٢) الغرر: الهلاك.

أوجد الرخصة فيه على غير هذه الحال، فكيف وبيت الله الآن بأيدي أقوام قد اتخذوه معيشةَ حَرام، وجعلوه سببًا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حِلٍّ، ومصادرة الحُجَّاج عليها وضرب الذِلَّة والمَسكَنة الدَّنيَّة عليهم»[1].

إنَّ القراءات التاريخية الماضية لواقع الحج والأماكن المقدسة في مكَّة المكرمة والمدينة المنورة، وما كان يُعانيه ضيوف الرحمن من مَشقَّة وخوف في ذلك الوقت، بل إنَّ ما يَجده المسلمون اليوم في كثيرٍ من الدول العربية والإسلامية من مآسٍ، وما عليه الواقع بعد أن تَولَّت الدولة السعودية أمور الحج، سواءً في الدولة السعودية الأولى أو في الفترة الثالثة الحالية؛ حيث يجد ضيوف الرَّحمن الرِّعاية والعناية والأمن والأمان، وكلُّ سَنَةٍ أحسنُ من سابقتها، حتى إنَّه في السنوات الأخيرة، وبعد أن منَّ الله على المملكة بنعمة البترول والثروة، أجزلت الإنفاق على الحرمين،

(١) رحلة ابن جبير، ص ٥٥.

وخصَّت الأماكن المقدسة بمزيدٍ من العطاء والبذل والعناية، وأصبح الضيوف حين يصلون المملكة يَحْسَبُون أنَّهم في خيال؛ إذْ يَجِدون الصورة المُشرقة والرعاية الزاهية بالحرمين الشريفين، ويلقون الأمن والأمان والخدمة والترحيب مُنذ أن تطأ أقدامُهم أرضَ بلادنا العزيزة، وحين ترى أعينهم الحرمين يلحظون العمارة العظيمة، والرعاية الفائقة، والنظافة الفريدة، والخيرات المُيسَّرة. وأحسب أنَّ أولئك الأوائل لو قاموا من قبورهم ورأوا واقع الحرمين اليوم وقارنوه بما عاشوه في تلك السنوات، أحسبهم يتوجهون للقبلة يدعون لبلادنا بالبركة، ودوام المنعة والعِزَّة.

كُنتُ في زيارةٍ لطهران عام ١٤٣١هـ، وهناك التقيت ببعض الشخصيات الإيرانية السُنيَّة، وتَحدَّث بعضُهم إليَّ وهو قلِقٌ خائف كأن أحدًا يُراقبه، قال: إنَّ الحكومةَ الإيرانية تستاءُ من مشاعر العامَّة الإيرانيين حين يزورون المملكة، وذلك أنّهم يعودون بقلوبٍ خضراء غير التي ذهبوا بها؛ إذْ يجدون هناك

في الأماكن المُقدسة ما يُصيبهم بالصدمة والذهول من عِظم العمارة والحفاوة والترحيب، فيعُودون بصورةٍ مُشرقة عن البلاد التي يسعى قادتُهم لتشويه سُمعتها، وجَحد جهودها في خدمة الإسلام والمسلمين، ولكنَّ الزَبَدَ يذهب جفاءً، والباطلَ يَدمَغُه الحقُّ.

الفصل الخامس

تحالف الخصوم الثاني وفرحتهم

مع الازدهار العلمي وتوسع الدولة السعودية الأولى، وصل صداها للمسلمين في الهند وفي كل البلاد الإسلامية، وتأثر المسلمون بمنهجها الفكري وتصحيحها الخرافات، فازدادت صحوتهم، وتطلَّعوا للتَّحرِّر من الجهل ومن الاستعمار البريطاني. كانت بريطانيا آنذاك المملكة التي لا تغيب عنها الشمس؛ لكثرة مستعمراتها، فساءتها تلك الصحوة، كيف وبريطانيا ومعها دول الغرب وروسيا، يعملون على تجزئة العالم الإسلامي، وإسقاط الرجل المريض؛ الدولة العثمانية! فكيف يرضون بدولة جديدة تُعيد للإسلام مجدَه، وللعرب عِزَّهُم؛ ولهذا ارتاع أعداء الإسلام في الشرق والغرب من الدولة الفَتيَّة

الصاعدة، وتآمروا وتحالفوا ومكروا، فشوَّهوا صورة الدولة، وأطلقوا مُصطلح الوهابية المتوحشة في ذلك الوقت، فقال قائلهم: إنَّ شعار الدولة هو «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بحذف ميم محمَّد؛ أي: ليس هناك رسول الله، وقالوا في رسائل للخليفة العثماني عن الإمام سعود بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه من الخوارج، وإنه رفع ستارة السعادة الجاري إكساء الكعبة المُطهرة بها كل سنة، من طرف السلاطين العثمانيين، وأنه نَسَج ستارةً من العباءة السوداء بدل ستارة السعادة، ونقش عليها «لا إله إلا الله سعود خليفة الله» بدلًا من «لا إله إلا الله محمَّد رسول الله» حوالي الستارة وجوانبها. قالوا ذلك زورًا وبُهتانًا، وهو ما يُردِّدونه اليوم من كذبٍ وتزويرٍ؛ لتشويه الدعوة التي هي الأساس لقيام الدولة واستمرارها.

يقول الإمام عبدالله بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، آخر ملوك الدولة السعودية الأولى، في رسالةٍ للخليفة العثماني: «إن الشريف تشبَّث بأذيال الخدعة والحيلة، وادَّعى

بأن الحُجَّاج الواردين من قِبَل الدولة العليَّة، لم يكن لهم غرض إلا السعي في الفساد، وقتل النفوس في الحرمين الشريفين، وكتب عرائض مُزوَّرة على لسان والدي، وقدَّمها إلى الباب العالي، كما تحقَّق ذلك وتبيَّن فيما بعد، وأنه وإن كان رأى ثمرة سوء أفعاله؛ تصديقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. ولكنَّنا لم نتدخل في شؤون البنادر الموجودة تحت يده، ولم نُجز الفساد الذي سَعى فيه بين رعايا الدولة العليَّة، وإنما وافقناه على إرجاعه حُجَّاج المسلمين برأيه الخاص؛ مجاراةً له. ومن الواضح أننا لا نجرؤ على منع حُجَّاج المُسلمين أصلا؛ لكونهم مُستظلِّين بظلّ سطوة حمايتكم الشاهانية، ولما كان حُجَّاج المسلمين رحمةً عامَّة لكافة البلاد والعباد، وروافض الأعجام طامَّة وأي طامَّة، فالمشهور عنَّا أننا لا نتدخل، ولا نتعرَّض بأي وجهٍ كان، لمرور حُجَّاج روافض الأعجام وعبورهم في كل عام، من حوالينا. وعلى العموم، فإن كل ما نُسب إلى عبدكم هذا، من أمور الطغيان والخوارج كلُّها، ناشئٌ عن خدعة الشريف المُشار إليه، ودسيسته، وقد

كتم وأنكر ما بذلنا له من الحسنات، وحرَّض الناس علينا، ودعاهم إلى قتالنا بدون علمنا بذلك»[١]. ويقول في رسالةٍ أُخرى عن الشريف غالب: «صار يكتب لهم على لسان أبي ما يُورث العداوة والإحن بيننا وبين الدولة من الكذب والبهتان، ويُمهر تلك الكتب التي زوَّرها بمهر قد نقشه باسم سعود، ويحبس ما كتبه أبي عنده. وقصده بذلك إثارة الفتن واضطرام نار الحرب، ونحن لا نشعر بشيء من مكره حتى ثارت الحرب بيننا وبينكم»[٢]. إنه الكيد والمكر، فقد لبَّسوا وزوَّرُوا على الدولة السعودية الأولى، واستطاعوا بذلك المكر ردَّ الحجّاج القادمين من تركيا؛ لإثارة حفيظة الخليفة العُثماني، وبيَّن الإمام عبدالله بن سعود في هذه الرسالة الحقيقة، وأنه التزوير والباطل.

إنّهم أعداءٌ مُتعددِّون بالأمس واليوم، يتخفَّون، ويكيدون، ويدفعون غيرهم لتنفيذ مُخطَّطاتهم، فجاء السُنَّج باسم مُحاربة الوهابية، وبزعم نشر العدل

(١) الدولة السعودية الأولى، ١١٥٨ - ١٢٣٣هـ/ ١٧٤٥ - ١٨١٨م، ص٤٤٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤٧.

والسماحة، وتجمَّعت القوى الظالمة، ودفعوا بحاكم مصر ليرسل جيوشه بأمرٍ من السلطان العثماني في تركيا لإسقاط الدولة السعودية. يقول الزركلي: «حاربت الدولة العثمانية آل سعود في قلب الجزيرة وأطرافها بجيوشٍ عثمانية كان فيها التركي والأرناؤوطي والكُردي والشركسي، والعربي؛ من مصري وسوري وعراقي ومغربي، وهدمت حربها معهم مُدُنًا لهم ومعاقل، وسيق منهم أسرى ومستسلمون ضُربت أعناقهم في القسطنطينية عاصمة آل عثمان»[1].

وأورد الزركلي ما ذكره الرواة: «أنه كان يصحب أبناء محمد علي أحيانًا أو على الأكثر مستشارون من الأجانب، منهم ضابط اسكوتلاندي قام بعض الوقت سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) بتولي زمام الأمور في المدينة المنورة، وكذلك مهندس فرنسي اسمه (فايسيير) اصطحبه إبراهيم من مصر مع أربعة أطباء إيطاليين، هم: سكوتو، وجنتيلي، وتود ستيني، وسوشيو. وكان في

(١) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز: ص ١٤٠.

جيش إبراهيم أوروبيون آخرون من المهندسين وصُناع النيران الاصطناعية والأطباء والصيادلة»[1].

وأورد الزركلي عن صاحب مطالع السعود: «أن داوود باشا والي العراق شارك في الهجوم على نجد، فأرسل سنة ١٢٣٣ هـ (١٨١٨ م) قوة بقيادة محمد وماجد ابني عرعر الخالدي الحميدي استولت على الأحساء والقطيف بعد معارك مع حامية آل سعود، ذلك في الوقت الذي كان فيه ابراهيم باشا يُغِير على العارض وقبل استيلائه على الدرعية»[2].

وشاء الله وقدَّر أن يموت الإمام القوي سعود بن عبدالعزيز قبل سقوط دولته، وأحسب أنَّ الله قد كرَّمه واختاره إلى جواره قبل أن يرى تلك القوى الظالمة الباغية وهي تُدمرُ الدولة الغالية التي شارك في بنائها مع والده الإمام عبدالعزيز وجَدّه الإمام المؤسس محمَّد بن سعود رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

---

(١) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، ص١٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٨.

وأسقطت القوى المُتحالفة الظاهرة والخفيَّة الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣هـ في عهد عبدالله بن سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وتتضح المؤامرة الدوليَّة بتبادل أولئك المُتآمرين التهاني؛ فَما أن ذاعت الأنباء بسقوط الدولة السعودية الأولى حتى أسرع الحاكم البريطاني العام في الهند بإرسال المندوب (سادلير) يحمل رسالةً وهديةً لإبراهيم باشا، وجاء سادلير يحثُ الخطا ولكنه وجده قد رحل من الدرعية، فَتَبِعَه إلى أن وصل المدينة المنورة، وهناك التقى به في أبيار علي، وقدَّم له الخطاب الذي كُلِّف بتوصيله إلى الباشا والهدية التي كانت عبارة عن سيف، وجاء في هذا الخطاب المؤرخ في ٢ يناير ١٨١٩ ما يأتي: «... لقد سَرَّني ما بلغني من النجاح الباهر الذي حققته جيوش الدولة العثمانية بقيادتكم. فحين وردني نبأ احتلالكم الدرعية، انتهزتُ هذه السانحة كي أهنئكم على شجاعتكم الباهرة وحسن تقديركم ودقة خطط جيشكم المحكمة، ما حقق هذه النتيجة العظيمة،

ألا وهي سقوط تلك القوة التي نمت نموًا سريعًا حتى باتت ذات خطرٍ جليل، فوقع على سعادتكم مسؤولية إخضاعها. وهذه التهنئة هي تعبيرٌ عن الصداقة التي تربط بين حكومتي الهند ومحمد علي باشا وتقدير لصداقته وصدق نواياه تجاه الحكومة البريطانية. وقد نما إلى علمي أيضًا أنكم تزعمون استخدام جيوشكم المظفّرة لردع الشيوخ المتمردين الآخرين، خاصة شيوخ القواسم، وقسرهم على الطاعة. ولعلكم تدركون ما تقوم به هذه القبيلة من عمليات قرصنة في الخليج الفارسي، الأمر الذي أدرجهم في مصاف أعداء الحكومة البريطانية. وأرى أن قيام حملة مشتركة يتعاون فيها الجيش الذي يقوده سعادتكم مع حملة أسطولية تُسيّرها الحكومة البريطانية سيكون أمرًا مثمرًا ومرغوبًا فيه... أرفق لكم مع هذا خطاب الحاكم العام بالتهنئة على نجاحكم الباهر وتصميمكم الذي تجسد في تدمير القوة الوهابية. كما يطيب لي أن أُشيد بشجاعة قواتكم»[1]. وجاء في نهاية

(١) روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية: ٣٤٨/١.

تقرير المستر فرانسيس واردن الذي قدَّمه لحكومة الهند سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩ م، عن الدولة السعودية الأولى «هكذا قامت وسقطت، ويُؤمَّل ألا تقوم مرَّةً ثانية تلك الجماعة الأولى الشاذَّة التي شجَّعت وحَمت الغارات البحرية في الخليج، وبحار الهند (المحيط الهندي) بدرجة من النجاح وبجرأةٍ ووحشيةٍ لا تفوقها غير بشاعة الجزائريين في أوروبا». وقد عبَّر القنصل الإنجليزي في مصر، عن سرور بلاده لسقوط الدولة السعودية بقوله: «عصابة من اللصوص أثبتت أنها أكثر تعصُّبًا وأشدَّ عداوةً من أتباع الدين الذين حاولت هذه العصابة أن تحلَّ محلَّهم»[1].

قاتَل الله الإنجليز، فأولئك رجالهم في المنطقة، يفرحون ويطربون ويصفون أجدادنا بالشذوذ وباللصوص، وبالتعصب والغُلو والوحشية.

وإيران وما أدراك ما إيران وما في باطنها من حقدٍ وكراهيةٍ على ديار العرب التي شرَّفها الله

(١) روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، ص٢٩٢.

بالحرمين الشريفين، لقد رأت في إسقاط الدولة مسرةً وبهجة، فهي تخشى من عودة المَجد الإسلامي لبلاد العرب، وتَجسَّد حقدُها الدفين على الإسلام الحق برسالتها التي بادرت بإرسالها فور سقوط الدولة لمحمّد علي باشا بوساطة سفيرها في القاهرة علي خان زعمت فيها بِدعية الدولة وفسادها وعداءها للدين، يقول عباس مرزا شاه إيران في رسالته: «بَلغ إلينا، مجاري أمرك، ومعالي قدرك وأنباء ظفرك ونصرك، ما يُنْشد أبهج عنه، ويُبشر المُبْهَجُ به وتحار العقول لديه وتطير القلوب إليه، فاطلعنا على ما صنعت في قتال العرب، وصبرت في احتمال التعب، واجتهدت في تجهيز الكتايب، وتشميد الغواضب، حتى وطيت أرجاء التهامة، بأقدام الشهامة، وخلصت أرض النجد بالعز والمجد، فتحت باب الأمنية بفتح الدرعيَّة، وبالغت في دفع البدع، ونفي الدين المخترع، وقطع دابر المفسدين، ونصر إسلام المسلمين، حتى شرحت صدورهم بعد حرجه، واستقام الأمر بعد عِوجه، وبدأ علو الدين وباد عدو المؤمنين»[1].

(١) الدولة السعودية الأولى، ١١٥٨ - ١٢٣٣هـ/ ١٧٤٥ - ١٨١٨م، ص٤٥٢.

ويختتم الرسالة بحاشيةٍ يُعبِّر فيها عن مزيد سروره، فلم يجد ما يُقدِّمه لحاكم مصر من مُكافأة على سفك دماء أهلنا وأجدادنا، وتخريبه ديارنا سوى سيفٍ كان أجداده المجوس يتهادونه في سالف الدهر وماضي الأيام، وخاتم من الفيروز. يقول في تلك الحاشية: «إن خير التُّحف، وأشرف ما يُهدى ويتحف، صرف وداد يُبْعثُ من صفد الفؤاد، لكنَّه جَرَّب عادة الأسلاف من الملوك والأشراف، بإبلاغه التحية مصحوبًا بالهدية، وقد كان عندنا سيف حَديدٍ بقي من سالف العهود، وتركة الملوك إلى الملوك، فكانوا يتقلدون به، ويتناقلونه بيمينه، حتى انتقل إلى الدولة البهية الخاقانيَّة، وأُعطيناه من الحضرة العليَّة السلطانيَّة، فخصصناه بك لما يناسب عزمك في الحدِّ والمضاء، وحدك في اليُمن والبهاء، وأصحبناه خاتمًا فيروزجًا، وأظهرنا من حبِّ الفؤاد أنموذجًا..»[1].

(١) الدولة السعودية الأولى، ١١٥٨-١٢٣٣هـ/١٧٤٥-١٨١٨م، ص٤٥٣.

تِلكُم القوى الخارجية تآمرت وتحالفت في حين كانت الدولة السعودية الأولى وحيدةً لم تتكون لها بعد تحالفاتٌ خارجية، ولم ترتبط بمصالح دولية، فأطبقت عليها قوى الظُلم والبغي فسقطت، ولكن بقيت جذوة الدين، ومكانة العلماء والحكام.

وبعد، فإنه التاريخ يتكرَّر، فما تتعرَّض له المملكة اليوم من كيد الخصوم وتحالفهم، هو ما كان فيما مضى، فوصف المملكة اليوم بالغلوِّ والوهابيَّة، هو وصفهم نفسه قبل قرنين من الزمان.

الفصل السادس

السنوات العجاف

بعد أن نجح الأعداء، وفاز تحالفهم بسقوط الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣هـ، حَلَّ الخراب والدمار. يقول المؤرخ الفاخري: «وكانت هذه السنة كثيرة الاضطراب والاختلاف، ونهب الأموال، وسفك الدماء، وتقدَّم أناس وتأخَّر غيرهم، وذلك بحكمة اللّٰه وقدرته، وصار التنكيل بالعلم ورجاله»[1]. ونال الأعداء من الفكر والعلم الذي قامت عليه الدولة، فقد بطشوا بالعلماء ونكَّلوا بهم. يقول ابن بشر: «قتل الباشا من أعيان المسلمين عدَّة رجال؛ فمِنهم من قُتل صبرًا بالقرابين والبنادق، ومنهم من جُعل في ملفظ القنبر والقبس، وصار رصاصة للبارود وطاح من الجو قطعًا، فمِمن

(١) تاريخ الفاخري، ص١٨٢.

جُعل في ملفظ القبس والقنبر علي بن حمد بن راشد العريني قاضي ناحية الخرج، وصالح بن رشيد الحربي من أهل بلد الرس، وعبدالله بن صقر الحربي من أهل الدرعيَّة، وممن قُتل بالقرابين والبنادق رشيد السردي قاضي الحريق والحوطة، وعبدالله بن أحمد ابن كثير، وعبدالله بن محمَّد بن عبدالله بن سويلم، وحمد بن عيسى بن سويلم، هؤلاء من أهل الدرعيَّة، ومحمَّد بن إبراهيم بن سدحان صاحب بلد شقرا وغيرهم»[1]... وفي آخر سنة ١٢٣٣هـ قتلوا الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمَّد بن عبدالوهاب بعد أن عذَّبوه وأسمعوه آلات اللهو من الرَّباب، وجرُّوها عنده إرغامًا له بها، ثم خرجوا به إلى المقبرة، فثوروا فيه البنادق فتمزَّق، وجُمع لحمه بعد ذلك قطعًا[2].

ويقول فيلبي: «وقد عامل إبراهيم باشا -حسبما نعلم- جميع أفراد العائلة المالكة السعودية بالتجلَّة والاحترام اللائقَين بهم، غير أنَّ الحال يختلف

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ص ٢٧٨.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ٢٨٢/١.

بالنسبة إلى أنصارهم، وعلى الأخصّ أفراد الهيئات العلمية؛ فقد قُتل بعضهم رميًا بالرصاص، بينما مُزِّقت أجساد الباقين منهم إربًا إربًا بقذائف المدافع، أما أحمد الحنبلي، قاضي الدرعيَّة فقد ضُرب وعُذِّب بعد أن قلعوا أسنانه، وأما سليمان بن عبدالله، حفيد محمَّد بن عبدالوهاب فقد تعرض لعار الإصغاء إلى عزف القيثار قبل قتله رميًا بالرصاص»[1].

وكما ذكر المؤرخان الفاخري، وابن بشر، وبعدهما فيلبي: فقد كان التنكيل بالعلم ورجاله إنها الحرب على قوَّة المملكة الناعمة، على القوَّة التي تكسب القلوب، على منهج الدولة الفكري الذي قامت عليه، أرادوا إسقاط المنهج، ولكن ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

إنَّ المنهج الفكري الذي قامت عليه الدولة السعودية يضرب فيه أعداء الدولة منذ القِدم، إنه

(١) تاريخ نجد ودعوة محمَّد بن عبدالوهاب السلفية، ص١٥٦، ١٥٧.

المنهج الصلب الثابت العَصيُّ، وإنَّ تَمكُّن الدين وثباته في نفوس المجتمع السعودي وآل سعود هو الذي حفظ للمملكة تماسكها وثباتها مع المحن التي عصفت باستقرارها.

وعاشت بلادنا سبعَ سنواتٍ عِجاف من الضياع والخلافات. يقول المؤرخ ابن بشر المُعاصر لتلك الأحداث: «صار التناحر والخوف، وتقاتلت كلُّ بلدة مع أختها وكل جماعة مع جيرانها، وصار الرجل في بيته وجلًا مخوَّفًا، وتذاكر الناس ما بينهم من الضغائن القديمة، وتطالبوا بالدماء؛ فكلٌّ صار يطلب أولاد غريمه، وهُجرت المساجد وصار في كل البلدان فتن، وقتل وقتال ومِحن، وظهر المنكر وعدم الأمر بالمعروف»[1].

ويعرض صورًا مما حدث في منطقة سدير بين أهالي القرى، يقول المؤرخ ابن بشر في سنة ١٢٣٨هـ: «وركب محمَّد بن جلاجل إلى بغداد قاصدًا ابن عمِّه

(١) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ٧/٢.

عثمان بن جلاجل يطلب نجدته، فجاء معه من الزبير خمسة وعشرون مطيَّة، وفي ليلة ستٍّ وعشرين من رمضان، اجتمعوا في بلدة التويم، ومعهم جمعٌ من أهل عشيرة، ثم انطلقوا للهجوم على بلدة جلاجل لقتل أميرها، ولكن أعمى الله بصائرهم وتاهوا بين البلدتين فلم يدروا بأنفسهم إلا وهم راجعون إلى التويم، ثم أقبلوا في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان فقصد أهل عشيرة وأتباعهم شرقي جلاجل، وقصد أهل التويم والروضة شمال البلاد، وتسوَّروا الأسوار ونزلوا، وصارت بين الفريقين مذبحة قُتل فيها واحدٌ وعشرون رجلًا تلك الليلة من الفريقين حتى قال أمير المجمعة لمَّا بلغه الخبر: لو جُمِعَ هؤلاء لوليمة لم يتَّفق اجتماعهم»[1].

اسْرَح بخيالك، واستعرض مساجد المملكة اليوم ليلة سبعٍ وعشرين من رمضان وكيف الأمان والطمأنينة! وكيف الروحانية والسكينة! واستحضِر

(١) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ١٩/٢، ٢٠.

تلك الليلة الرمضانية في بلدة جلاجل بسدير، وكيف يتقاتلون! إنها الفوضى والهلاك، والخوف والفزع، والحزن والألم. حفظ الله لبلادنا أمنها وأمانها ونعيمها وطمأنينتها. وتقاتل أهل بلدة التويم إلى أن اصطلحوا أن يقسموا البلدة إلى أربعة أقسام؛ كل قسم تحكمه أسرة، فسُمِّيت تلك السنة بسنة المربوعة؛ قريةٌ صغيرة يتقاتل أهلها على الزعامة والإمارة فيحكمها أربعة، فكيف ببقية مناطق المملكة!

كانت القُرى تتقاتل فيها الحاضرة، وكانت الصحاري تتقاتل فيها البادية، ونسى الناس سنوات الرخاء والأمان، فغابت الدولة، وضاعت الهيبة، ونشطت القبلية وتحزَّبت الجماعة. يقول ابن بشر: «فتقاتلوا على سُنن ما أنزل الله بها من سلطان... وظهرت دعوى الجاهلية في كل البلاد، وتنادوا بها على رؤوس الأشهاد، وتتابعت هذه المحن في تلك الجزيرة نحوًا من سبع سنين، والشر فيها في زيادةٍ وظهور»[1].

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ٢/٧.

وقيَّض الله لبلادنا المؤسس الثاني الإمام تركي بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد استطاع أن يجمع العِقد المنتثر بعد السبع السنوات العِجاف التي ذاق الناس فيها الخوف والجوع، لقد كانت جذوة الدين باقية، وكان الولاء لآل سعود مُتجذِّرًا؛ ولهذا ما إن ظهر الإمام تركي بن عبدالله المؤسس الثاني حتى هبَّ المجتمع يُناصره ويأتمر بأمره، فعادت الحياة، وأورقت شجرة الدولة من جديد. وأحسب أنَّ الإمام وقد رأى الدرعيَّة، وقد هُدِّمَتْ دُورها، وأُحرقت أسواقها، رأى تجديد المكان، فاتَّخذ الرياض عام ١٢٤٠هـ مقرًّا للحكم، وعاصمةً للدولة السعودية الثانية التي عاشت سنواتٍ من الأمن والطمأنينة، لاسيما في عهد الإمام فيصل بن تركي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الفصل السابع

بين الدَّولتين

لم تَبلغ الدولة السعودية الثانية قُوَّة الأولى ولا سَعتها ولا صيتها، ولا هيبة الثالثة ولا امتدادها ولا ازدهارها، لكنَّها قامت على منهج الأولى نفسه، وعلى توجهاتها أيضًا، فحين استعادت عافيتها عام ١٢٤٠هـ، واتخذت الرياض عاصمة لها، شرعت في تنفيذ منهجها الفكري وثوبها الديني، فبادرت بإرسال الدعاة، وتعيين العلماء في القرى والهِجَر، وأحسب أنَّ خصوم الدولة وغزاتها، وقد رأوها تعود لما كانت عليه رَاعَهم التفاف المجتمع السعودي حول حكامهم السابقين، وساءَهم عودة المنهج الفكري الذي آذوه ونكلوا بعلمائه وشوَّهوا سمعته. إنه منذ قيام المؤسس الثاني الإمام تركي بن عبدالله باستعادة الحكم، وهو

يسير وفق خُطى أجداده بالقوَّة وبالعلم، لقد ظلَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تسع سنوات يستعيد مجد الدولة ويُلَملِم عِقدَها المنتثر، وكان ينظم الشعر فيقول:

طار الكَرى عن مُوق عيني وفَرَّا
وفزِّيتْ من نومي طَرا لِي طواري

إن سايلو عنَّي فحالي تَسرّا
قُبقب شراع العزِّ لو كُنت داري

رميتُ عنَّي برقع الذُّلِّ بَرّا
ولا خير فيمن لا يَدوس المحاري

إذا كلّ خوي من خويِّه تبَرَّا
حملت أنا الأجرب خويًا مباري

وحصَّنت نجدًا عقب ماهي تطرَّا
مصيونةً عن حرِّ لفح المذاري

والشَّرع فيها قد مشى واستقرَّا
ويقرأ بنا درسَ الضَّحى كلّ قاري

زال الهوى والغي عنها وفرَّا
ويَقضي بها القاضي بليا مصاري

ومن غاص غبَّات البحر جاب درَّا
ويحمد مصابيح السّرى كلُّ ساري

إنّ هذه الأبيات تحكي شخصية الإمام تركي حين يتغنَّى بقوَّته الصلبة؛ بسيفه الأجرب، وبالعزَّة والإباء، ولا ينسى قوَّته الناعمة، وكيف صار الشرع كائنًا يتمشَّى في نجد تمشِّي الشموخ والثبات. وأخذ الإمام في تعيين القُضاة والدُعاة وتمكينهم، وكان له مجلس وعظ ودروس. يقول ابن بشر: في كل يوم خميس وإثنين يخرج من قصره فيجمع الناس لذلك أجمعين، وكانت القراءة عليه تارةً في التفسير، وهو الأغلب، وتارةً في الحديث، أو في شرح كتاب التوحيد أو في كتب السيرة، وأحيانًا في كتب السياسة الشرعية، ويقول في رسالةٍ كتبها لأمرائه: «كُلُّ أهل بلد يُرتِّبون مجالس الدرس في المجامع، فإن كانت خاربة يُعمرونها، والذي يُعرَف بالتخلُّف عن مجالس الذكر يرفعونه لنا، وأنا مُطلق الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إذا كان عن علم، يَنصح أولًا، ويُؤَدِّب ثانيًا، ومن عارضه خاصٌ، أو عامٌ، فأدَبُه الجلاء من وطنه، وهذا من ذمتي في ذمَّة كل من يخاف اللّه واليوم الآخر، وأنا أُشهد اللّه عليكم أني

بريءٌ من ظُلم مَن ظَلمَكم، وإني نُصرةٌ لكل صاحب حق، وعونٌ لكل مظلوم، ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وأعزَّكم بعد الذلَّة، وجَمَعكم بعد الفرقة، وكثَّركم بعد القلَّة، وأمَّنَكم بعد الخوف، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم والسّلام»[١].

ولهذا حين تولَّى الإمام فيصل بن تركي الحكم بعد والده، وسار بالدولة وفق منهج أبيه وأجداده، وشرع يبني الدولة، ويستعيد القوَّة، كانت القوى الخارجية ترقب وتتربَّص؛ ولهذا أرسل إليه حاكم مصر محمَّد علي باشا[٢] يطلب منه إرسال عشرة آلاف جمل لمساعدة حملة ذهبت من مصر لإخضاع عسير فلم يفعل، فعدَّ محمَّد علي ذلك عصيانًا من الإمام فيصل؛ ولهذا أرسل في عام ١٢٥٢هـ حملةً بقيادة إسماعيل آغا، وجاء معهم الأمير خالد بن سعود.

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ٢/٧٤، ٧٥.

(٢) شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ١/٤٥.

وجاء الخصوم من جديد؛ أي بعد أربعة عشر عامًا من قيام الدولة الثانية، ولكن بأسلوبٍ آخر، يقول ابن بشر: «في سنة ١٢٥٢هـ جاء من مصر القائد إسماعيل آغا ومعه الأمير خالد بن سعود، وهو أخ لآخر حكام الدولة السعودية الأولى، جاء به ليُنَصِّبه حاكمًا بدلًا من الإمام فيصل بن تركي»[١]. وقد أراد الغُزاة بهذا العمل تحويل مسار الدولة الفكري بطريقةٍ مختلفةٍ عما عملوه مع الدولة السعودية الأولى؛ حين بثُّوافيها الدمار، وسفكوا الدِّماء، واستخدموا معها الإبادة والترويع، ولكن ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

إنّ الفكر ليس شيئًا ماديًّا يُقضَى عليه بالقتل والترويع، أو الهدم والإزالة، وإنما يُحارَب الفكر بالفكر؛ ولهذا جاؤوا بشخصيةٍ من أُسرة آل سعود عاشت بين مصر وتركيا قرابة ثمانية عشر عامًا، وتَربَّت هناك وفق منهجٍ فكريٍ رسَموه لها. وأحسب أنَّهم ظلُّوا تلك

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ٨٨/٢.

السنوات يُربُّون الأمير خالدًا ويرقبونه، فقد نقله الغُزاة إلى مصر وقت سقوط الدولة، وهو في مقتبل عمره، وظلَّ تلك السنوات بعيدًا عن بيئة نجد وخشونتها وقرب النيل، وبين مجتمعٍ أكثر رقَّةً وتحضُّرًا، وأقلَّ تمسّكًا بقيم الدين من مجتمعه الذي طوى الغزاة مجده ونضارته، عادوا به بعد أن أمضوا سنوات يُعلِّمونه ويُوجِّهونه، وحاربوا به الإمام فيصل بن تركي، وجعلوا الدولة السعودية الثانية في حربٍ مع الغزاة من جديد بعد سنوات من رحيلهم، واستطاعوا بعد خمس سنوات من حكم الإمام فيصل؛ أي: في عام ١٢٥٥هـ، أن يتمكنوا من عقد صلح مع الإمام فيصل بن تركي يتنازل بموجبه عن الحكم لخالد بن سعود، ويرحل إلى مصر ليعيش هناك مرَّةً ثانية كما عاش في المرة الأولى حين رحل سنة سقوط الدولة الأولى عام ١٢٣٣هـ؛ أي إنه كان بين الرحلتين نيفٌ وعشرون سنة، إنها سنوات من البلاء وعدم الاستقرار عاشها الإمام فيصل، وعاشتها الدولة السعودية الثانية، لكن المجتمع السعودي، وإن كان ولاؤه لآل سعود فالدين متمكن منه؛ ولهذا

فقد رفضه المجتمع السعودي بعد سنتين من حكمه؛ لأنّهم وجدوا أنفسهم يختلفون مع الرجل في منهجه الفكري ومساره الديني، لاسيَّما أنه مفروض عليهم، فسموه بخالد الأفندي، وكاتبوا الغزاة يطلبون تغييره، ولكنَّهم لم يستجيبوا لطلبهم؛ ولهذا ما إن رفع راية المعارضة شخصٌ آخر من أسرة آل سعود حتى هبُّوا لنجدته؛ إذ قام عبدالله بن ثنيان بن إبراهيم آل سعود بقيادة المعارضة، واستطاع انتزاع الحكم من خالد بن سعود، غير أنَّ البيعة والولاء كانا للإمام فيصل الغائب الذي يترقَّب الناس عودته من مصر، وشاء الله وقدَّر أن يعود الإمام فيصل، ويسترد الحكم من جديد بعد أربع سنوات من الانقطاع، وحين تَسلَّم فيصل الحكم للمرَّة الثانية، أعاد للدولة هيبتها وتوسُّعها. يقول لويس بيلي المندوب البريطاني في الخليج العربي، وقد زار الرياض وقابل الإمام فيصل عام ١٢٨٢هـ: «عندما وصلتُ إلى الخليج العربي منذ ثلاثة أعوام ونصف، وجدتُ أنَّ من بين المهمَّات المُلقاة على عاتقي القيام بدور المُحكِّم للهدنة البحرية التي أبرمها عددٌ من

المشايخ شبه المستقلين على طول الشاطئ العربي. فبعد أن تحقَّقتُ من الأمر أكثر فأكثر، وجدتُ أنّ هؤلاء المشايخ ليسوا في الواقع أكثر من تابعين لسلطة نجد في الداخل»[١].

فالمندوب السامي البريطاني يعترف بسلطة الإمام فيصل بن تركي وهيبته، وأن حُكَّام الخليج ليسوا إلا تابعين له، وأنَّه عادلٌ صارمٌ فَرضَ هيبته، وضَبطَ الحكم، ووفَّر الأمن والأمان. يقول: «وفي الوقت نفسه لا يسعنا تجاهل أنَّ جميع الفرقاء يعترفون بأن الأمير فيصل بن سعود حاكم عادل وصارم. وأنه نجح نجاحًا منعدم النظير في الحدِّ من النزاعات العدوانية للقبائل التي يحكمها، كما أنه كان ماضيًا في ترسيخ الميول الحضرية المفيدة في أذهانهم، وفي توجيه عنايتهم إلى الزراعة والتجارة»[٢]. ويصف هذا البريطاني مجلس الإمام ويقُصُّ جلسته، ويحكي شخصيته،

(١) رحلة إلى الرياض في عام ١٨٦٥م، ص ٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٧.

فيقول حين وصل الرياض: «قرابة العصر أرسل إليَّ الإمام يقول بأنه يسرُّه استقبالي في مُصلاه الخاص في القصر؛ ولذا انطلقتُ إليه على الفور، وبرفقتي الموظفون التابعون لي. لم يكن القصر بعيدًا جدًّا، وهو يقع في مركز البلدة، وكانت هناك رحبة مفتوحة فسيحة في مقدِّمته، وتقوم على البوابة الخارجية بضع مدافع عتيقة تسدُّ المعبر. ليس في هذا البناء أي مظاهر معمارية باذخة، وأمَّا قاعة الاستقبال فكانت غرفة طويلة واطئة، محمولة على عمدان خشبية منجورة بشكل خشن، ويُفضى إليها بواسطة دَرَج عتيق متآكل.

رأيتُ الإمام جالسًا في صدر المجلس على سجادة صغيرة بديعة، متكئًا بظهره إلى وسادة سميكة. كان أصغر أبنائه[1] يجلس بالقرب منه، وعلى مسافةٍ أبعد، وإلى الأسفل جلس حاجبه الخاص محبوب. عندما تقدَّمتُ إليه نهض الإمام، ولكن بصعوبة، وصافحني

(١) أصغر أبنائه هو الإمام عبدالرحمن والد الملك عبدالعزيز رَحِمَهُمُ اللَّهُ جميعًا.

ورَبَت على كامل كفِّي بتُؤدة، ثم طلب إليَّ الجلوس بقربه على السجادة. كان كفيف البصر تمامًا. غير أنَّ محيَّاه كان أخَّاذًا تامَّ التقاطيع، وينمُّ عن الهدوء ورباطة الجأش والصرامة والحلم والوقار. كان يبدو فوق السبعين من عمره، ويرتدي ثيابًا فخمة تنمُّ عن ذوقٍ رفيع، ويعتمر ما فوق الكوفيّة العربية بعمامة مكوَّرة من قماش الكشمير الأخضر، صوته رخيم وكلماته رزينة ومتَّزنة. إنَّه بالإجمال رجلٌ وقورٌ ودمِث، لكنَّك تلمح في قسماته طيف شدَّةٍ وبأس بالغَين عندما يلزم الأمر»[1].

نعم كان الإمام فيصل قوي الشخصية، يُجسِّد ذلك مظهر شخصيته، وسار الإمام فيصل على منهج الدولة الفكري الذي قامت عليه، ويجسِّد ذلك رسالته التي أرسلها إلى رعيَّته في جميع أنحاء البلاد بعد تسلِّمه السُّلطة من ابن ثنيان عام ١٢٥٩هـ. وتتعلَّق هذه الرسالة في معظمها بالمسائل الدينية. يقول فيلبي: «يبدو أنَّ الرسالة كانت ثمار وحي وتأمَّلات روحية

(١) رحلة إلى الرياض في عام ١٨٦٥م، ص ٨٧، ٨٨.

طويلة في أثناء سجنه في مصر»[١]. وقد أورد ابن بشر الرسالة كاملة في تاريخه[٢]، وقد أكَّد الإمام في رسالته على قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه من فرائض الدين وأركانه، وأمر بقراءة الرسالة في جميع المساجد، وإعادة قراءتها كل شهرين. وظل يحكم نيفًا وعشرين عامًا، عيَّن العلماء في القرى والأمصار، وأعلى من مكانتهم، فاستقرَّت معه الدولة، وثبتت أركانها، كان حافظًا للقرآن الكريم في صغره، وكان يقضي الساعات الطوال في التهجد والتضرُّع الى الله، وحتَّى في مقابلاته للضيوف الأجانب كان يُؤكِّد على الجانب الديني للدولة، يقول للمندوب البريطاني المذكور آنفًا: «إننا نرفض ديانتكم»، ويقول له أيضًا: «هناك دومًا فارق ما بين حروب الدين والسياسة، فيوم يتعلَّق الأمر بالدين ليس لدينا لأعدائنا إلا السيف، أمَّا في قضايا السياسة فلكلِّ حال لبوسها»[٣].

---

(١) تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبدالوهاب السلفيّة، ص ٢٠٨.

(٢) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ١٣٤/٢.

(٣) رحلة إلى الرياض في عام ١٨٦٥م، ص٩٠.

رَحم اللّٰه البطل فيصل، إذا كان الدين فليس للأعداء إلا القوَّة، فلا مساومة على الفكر والدين الذي قامت عليه الدولة، وإن كان الأمر يتعلَّق بالسياسة والعلاقات الدولية فلتلك حالةٌ أخرى. ويروي حافظ وهبة عن الشيخ عيسى بن علي[1] أنه مرَّ بالرياض في حجِّه سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م، فرأى الإمام فيصلًا يزور دار الأيتام، ورآه مرةً يبكي حينما قال له أحد المتخاصمين: خف اللّٰه يا محفوظ. وتَمتَّعت نجد في أيَّامه بسعادةٍ ورخاءٍ عظيمَين. ويروي عن الرحالة (بلجريف) وقد زار الرياض، والتقى بالإمام فيصل ابن الشيخ عبداللطيف حفيد الإمام محمَّد بن عبدالوهاب كانت سلطته تأتي بعد الإمام فيصل؛ أي إنَّ للعلم والفكر دورهما في القيادة والريادة.

تلكم الدولة السعودية الثانية امتدادٌ للدولة السعودية الأولى، وامتدادٌ لمنهجها الفكري ولقوَّتها الروحيَّة. وتوفي الإمام بعد تلك الزيارة بأشهر؛ أي

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين، ص٢٣٠.

في ١٣ رجب عام ١٢٨٢هـ، وتولَّى بعده ابنه الإمام عبدالله بن فيصل، ولكن بعد أقلَّ من عام خرج عليه أخوه سعود ونازعه الحكم، واضطربت الدولة، وشابها الكدر والبلاء، وحين اختلف الإخوة أبناء الإمام فيصل بن تركي، وصار الصراع بينهم، ضعُفت القوَّة الناعمة؛ القوَّة الفكرية التي قامت عليها الدولة.

وبعد أن اشتد الخلاف بين الأخوين تدخلت قُوى خارجية لا تُريد الخير لبلادنا العزيزة، تُساعد هذا وذاك، وطال الصراع بين الإخوة قرابة ثلاثًا وعشرين سنة. يقول المندوب البريطاني في الخليج الذي سبق أن زار الرياض في عهد الإمام فيصل بعد أن علم بالخلاف بين أبناء الإمام فيصل: «لقد سمعتُ من بعض العارفين بأننا لو أحيينا إضرام نار الفتنة في الأزمة الواقعة حاليًا بين مَسقط والسعوديين، فربما يؤدي ذلك إلى انفراط عقد السعوديين مؤقّتًا، أو على الأقل كسر شوكتهم لمدة طويلةٍ من الزمن... وإن تمكَّن عبدالله من إحكام قبضته في الداخل وأَمِنَ

في الوقتِ نفسه من تَدخُلنا الخارجي، فربَّما تكون النتيجة أن يحكم الحلف السعودي سيطرته للتوِّ على مشايخ الخليج العربي، وتقع المنطقة الشرقية من جزيرة العرب -من الكويت إلى رأس الحدِّ- في قبضة السعوديين في النهاية»[1].

قاتل الله الإنجليز ينشدون إضرام الفتنة، ويسعون لزيادة الخلاف، وشهادته هذه تؤكد تدخل البريطانيين لإيقاد النار بين المتخاصمين؛ ليزداد بُعدُهما، وتسقُط الدولة بافتراقهما.

إنَّ الخلاف شرٌ وتدميرٌ للأوطان، ومرقصٌ وطربٌ للشيطان، وقد انتهى الخلاف بسقوط الدولة السعودية الثانية عام ١٣٠٩هـ. وباستعراض حالة الدولة السعودية الأولى والثانية وما كانت عليه من قبول وتوسُّع ومهابة، ثم ما آلت إليه من تحالف الخصوم ونجاحهم في إسقاط الأولى بعد ذلك التمكين والقبول، ثم

(١) رحلة إلى الرياض في عام ١٨٦٥م، ص١٢٤.

الخلاف في الثانية وتدخُّل الطامعين، نرى تلك الدولة التي نشأت بعد بيعة الدرعيَّة وكانت أمل المسلمين، نرى ذلك الأمل قد ضعف واهتز؛ إذ تجزَّأت تلك الدولة الأمل إلى دويلات وولايات، وكانت بلادنا شذَر مذَر، ممزقةً الأوصال، مقطَّعة الأطراف، وضعفت الحركة العلمية، وقلَّ العلماء، وغاب دورهم الإرشادي، ومع تلك الحالة القاتمة، فهل يا تُرى يتصوَّر أحد أن تعود هذه الإمارات وتلك الزعامات والمشيخات، وينتظم عقدُها من جديد! وهل يَظنُّ عاقل أنَّ الدولة التي تآمرت عليها القوى الباغية، ونجح التحالف الشيطاني في إسقاطها أنها سوف تعود؟ وهل كان يحلم أجدادنا بأن دولتهم، وقد ذاقوا مرارة السقوط مرَّتين، قد تقوم، وتكون أقوى مما كانت عليه؟ إنَّ أحدًا لم يكُ ليتوقع ذلك! ولكن في علم الغيب شيئًا آخر! وشخصًا سيكون له تاريخ! وليس ذلك ببعيد:

فقد تُورِقُ الأغصَانُ بَعدَ ذُبولِها
ويَبدُو ضِياءُ البدرِ في ظُلمةِ الوَهنِ

فعبدالرحمن الداخل صقر قريش خرج وحيدًا إلى الأندلس، وكان فارسها الذي تمكَّن بتوفيق الله من إقامة الحكم الأموي في المغرب بعد أن سقط في المشرق. لقد كانت بلادنا على موعدٍ مع الفارس الموعودة به بلادنا في علم الغيب؛ إنه الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كان يوم السقوط في مرحلة الفتوة، لقد كان هو الأمل القادم، والقمر الغائب، والفارس الذي حمل الراية بهمَّة، وأعاد مجد الأمَّة.

الفصل الثامن

المؤسس الثالث

أغمِض عينيك، واسرح بخيالك، وارجع لتاريخ وطنك، وبالتحديد إلى أواخر الدولة السعودية الثانية لما بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرجل القوي العزيمة، ارجِع لما بين عامي ١٢٨٢هـ، و١٣١٩هـ؛ أي لستٍّ وعشرين سنة من الخلاف والانقسام الداخلي، ولإحدى عشرة سنة من السقوط، سترى الموت والدمار، والهدم والكراهية، وستجد تفتُّت الوحدة الوطنية، وستشاهد التقسيمات الحزبية والقبلية، وانظر لخارطة وطنك بعد سقوط الدولة الثانية عام ١٣٠٩هـ، ستجد عجبًا، وسترى الوطن وقد تمزَّق؛ فابن رشيد في حائل والقصيم والرياض، والأتراك في الأحساء، والأشراف في الحجاز، وآل عائض في أبها، والأدارسة في جازان، وشيوخ القبائل كلٌّ في ناحية يحكمها، والويل لمن اقترب من المراعي أو موارد المياه، ومع هذا التمزق والتفرق حلَّت بينهم العداوة والبغضاء، والحروب والفتن.

يقول الشيخ حمد الجاسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن تلك الحالة: «مرَّت هذه البلاد السعيدة... بحالةٍ أشبه ما تكون بحالة الجاهلية الأولى التي كانت تعيشها جزيرة العرب قبل البعثة النبوية، من حيث انتشار الجهل، وهو أصلُ كل داء، واستحكام العداوة بين سكانها، واستشراء أسباب الفوضى والشقاق والبغضاء والحقد بينهم، حتى أنعم الله على خلقه ببعثة من أرسله رحمةً عامةً شاملةً للأمة، فوحَّد بين شعوبها، وجمع بسَعْيه على فعل الخير متفرِّقَها، وأزال بما أتى به من تعاليم الدين الحنيف جميع ما شاع بينها من أسباب الفرقة والاختلاف، حتى أصبح الجميع إخوانًا متحابين، متعاونين على البرِّ والتقوى في كلِّ الأعمال النافعة لهم.

وهكذا كانت حال هذه المملكة قبل أن يقوم الإمام المصلح الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتوحيد أجزائها تحت راية العدل والمحبة والمؤاخاة»[1].

(١) دراسات وبحوث في تاريخ الملك عبدالعزيز، ص ٣٩.

لقد كانت مناطق المملكة قبل أن يكتمل توحيد الوطن تعيش الخوف والرعب، وكانت سُلطة الدولة هَشَّة، وهيبتها واهية، يقول علي الوردي: «يُحدِّثنا السيد محسن أبوطبيخ في مذكِّراته المخطوطة أنه عندما لجأ إلى الحجاز هو وزملاؤه من رجال ثورة العشرين، عقب انهيار الثورة، خرجت عليهم قبيلة حرب على مقربة من المدينة، فحصرتهم في وادٍ ضيِّق، وقطعت عليهم الطريق. ولمَّا أخبروها بأنَّهم ضيوف الملك حسين كان جوابها: إننا نريد قتلكم؛ لأنكم ضيوف الملك حسين. ولم يتخلَّصوا منها إلا بعد أن دفعوا لها أتاوة قدرها خمس مئة ليرة ذهب»[1]. ويقول: «في صيف ١٩٢١، ذهب الشيخ علي الشرقي إلى الحجِّ في معيَّة الشيخ خيُّون العبيد، وهو يحدِّثنا في كتابه (الأحلام) حديثًا مستفيضًا عمَّا كابدته قافلته في مسيرتها بين مكَّة والمدينة من خسائر في الأرواح والأموال. ننقل فيما يلي موجزًا له:

(١) قصة الأشراف وابن سعود، ص ١٨٨، ١٨٩.

كان الحسين قد أرسل مع القافلة حرسًا مؤلَّفًا من خمس مئة رجل مع قائد لهم، ولكن ذلك لم ينفع القافلة، بل أضرَّ بها؛ ففي الليلة الأولى من مسيرتها، فقدت شخصين قُتلا وهما في محملهما، وفي الليلة الثانية، فقدت القافلة ستة عشر رجلًا أصبحوا قتلى في محاملهم. وعند هذا قرَّرت القافلة العودة إلى مكَّة وترك زيارة المدينة. ولكن القائد طلب من الشيخ علي الشرقي الاجتماع به منفردًا، وقال له: إني أودعك سرًا في إفشائه إراقة دمي، إنَّ هذه القبائل لا حساب لها معكم، إنّ حسابها مع الملك الذي بخسهم حقَّهم، وليس له قوَّة على ردعهم، وما هذه الفواجع التي نزلت بكم إلا من بيرقنا الذي يرافقكم، فإذا انطوى هذا البيرق أمكنكم التَّفاهم معهم بسهولة فتسيرون بسلامةٍ واطمئنان. وطلب القائد من الشرقي أن يكتب إلى الملك كتابًا يشكره فيه؛ لكي يحمله القائد ويعود إلى مكَّة مع بيرقه.

يقول الشرقي: إنَّهم فعلوا ما أوصاهم به القائد، وجمعوا مبلغًا من المال دفعوه إلى قبيلة حرب، ثم

ساروا مطمئنين نحو المدينة. غير أنَّهم لم يكادوا يقتربون منها ويشاهدون أضوية الحرم النبوي حتى فاجأهم بنو سليم، وهم فخذ من حرب يسكنون بالقرب من المدينة، فأمطروهم بنيران بنادقهم وقتلوا منهم أربعين شخصًا كان من بينهم أربع نساء عراقيات، وذلك عدا الجرحى، ثم نهبوا القافلة.

وعند وصول القافلة إلى المدينة قدَّم رجالها شكواهم إلى الحكومة، وذهب الشرقي باعتباره الناطق بلسان القافلة إلى السراي لمقابلة الحاكم السياسي الشريف شحاذ، وحين قابله حضر عنده رؤساء بني سليم، وكان كل رجل منهم يستند على بندقيته والخراطيش مصفوفة على صدره، فأخذ الحاكم يخاطب الرؤساء معاتبًا موبخًا لما فعلوه بوفد الله ووفد رسوله - يقصد القافلة - ثم سألهم أن يدلّوه على الفاعل، فانبرى له شابٌ وسيم اسمه محمَّد بن نهار، وقال: (أنا الفاعل). وتبيَّن أنه رئيس بني سليم، فَجَرَت بينه وبين الحاكم محاورة على النمط الآتي:

الحاكم: لماذا؟

الرئيس: حتى أُعرِّف الشريف حسين أنَّ عند بني سليم بارودًا، وليس البارود عند غيرهم فقط.

الحاكم: ذلك أمرٌ بينكم وبين الملك، وما شأن هؤلاء الضيوف، حسبكم ما وقع ودعوني أخرجهم بسلام يا ابن نهار.

الرئيس: لا تخرجهم ولا هم يخرجون حتى يُصفِّي الشريف حسابنا.

الحاكم (غاضبًا): يا ابن نهار أخرجهم بهذا (وأشار بإبهامه إلى خرطوشة من الخراطيش المصفوفة على صدره).

الرئيس: تخسأ يا حمَار يا خمَار، وعيش عاش فيه رسول الله لأن أخرجتهم لأذبحنّك وأذبحهم معك، هيا يا معشر حرب. (وخرجوا جميعًا).

قرَّر رجال القافلة أخيرًا أن يجمعوا الأتاوة المعتادة لبني سليم، ومقدارها ستة آلاف ليرة؛ لكي يتمكَّنوا من

العودة إلى مكَّة سالمين. وقد بلغ الحسين ذلك، وقرَّر أن يشتري سمعة حُكمه بأن يدفع المبلغ من ماله، فأوعز إلى وكيله في المدينة السيد عمران الحبوبي بأن يدفع المبلغ إلى بني سليم ويسجله على الحساب. وقد فعل السيد عمران ذلك، وعادت القافلة إلى مكَّة بسلام.

اعتاد الحسين أن يُذيع بيانًا على الحُجَّاج فحواه أنَّ الحكومة مُلزمةٌ بدفع التعويض عن جميع ما تنهبه القبائل منهم، فعلى من يُنهَب منه شيء أن يقدِّم للحكومة عريضة يذكر فيها مقدار ما نُهب منه، ويحلف بالكعبة على ذلك. يروي الشرقي نقلًا عن قائمقام جدة الحاج محمَّد علي نمازي: «أن بعض الحُجَّاج يصدِّقون بهذا البيان، فيقدِّمون عرائضهم إلى الحكومة ويبقون في الحجاز منتظرين دفع التعويض إلى أن تتحرك آخر باخرة من بواخر الحجَّاج فينقطع بهم الطريق ويموتون جوعًا»[1]. وفي المنطقة الشرقية كانت الحال أسوأ من الحجاز، يقول الريحاني: «كانت الطرق في الأحساء في عهد الأتراك لا تُعبر إلا بقوَّة

(١) قصة الأشراف وابن سعود، ص ١٨٨، ١٨٩.

عسكرية، أو بدفع (الخوة)، وكانت الطريق بين العُقير والحسا -وهي طريق التجارة إلى نجد الأسفل- أكثرها وأشدُّها أخطارًا، فكان التاجر العربي المسلم الذي يروم الوصول إلى الهفوف -مسافة أربعين ميلًا- يضطر أن يدفع (الخوَّة) كلما اجتاز خمسة أو عشرة أميال من هذه الطريق المخيفة، طريق التجار والأموال. جاءها العجمان من الجنوب، وبنو مرَّة من الربع الخالي، والمناصير من قَطَر وما دونها، وبنو هاجر من الشمال من نواحي القطيف والكويت، وجاء من داخل البلاد، من وراء الدهناء، الدواسر الأشاوس، فحاموا كلهم على هذه الطريق، وربطوها، وقطعوها، وتقاسموا أموال قوافلها. كان يجيء التاجر من البحرين مثلًا فيدفع قبل أن يطأ برجله العقير (خوَّة) للعجمان. ومن العقير إلى النخل خمسة أميال وخمسون ريالًا (خوَّة) لبني مرّة. ومن أم الذر إلى العلاة خمسون ريالًا (خوَّة) لبني هاجر. ومن العلاة إلى... إلخ، وإذا فاز التاجر المسكين بحياته وبقي شيء في كيسه، فمن المؤكَّد أنَّ أحماله كلَّها لا تصل

إلى الحسا، وكان إذا خرج عسكر الترك لتأديب أحد من هؤلاء العشائر يطاردهم البدو فيغلبونهم ويأخذون خيلهم وثيابهم، ويرجعونهم إلى الحسا حُفاةً عُراة، ثم يجيء البدوي منهم راكبًا حصان الجندي التركي ليبيطره[1] على مرأى من السلطة المدنية»[2].

إنّ ثمن الأمن والرَّخاء الذي عاشته المملكة وتعيشه حاليًا لم يكن سهلًا، وكان توحيد المملكة على يد الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ معجزةً وتوفيقًا من اللّٰه وإرادة ربَّانيَّة. لقد شاء اللّٰه وقدَّر أنّ تقوم الدولة السعودية الثالثة على يد شابٍّ في ريعان شبابه وفتوَّته، منحه اللّٰه مُقوِّمات الزعامة والنجاح، وحفظه اللّٰه من محنٍ ألمّت به، وأخطارٍ أحاطت به، وإنه لعجبٌ كيف تحقَّقت الوحدة وعُدَّة الحرب؛ السيف، والبندقية، والحصان، والجمل، والبلاد شاسعة الأطراف بعيدة المسافات؛ فما إن يعود الركب من غزوة إلا وقد يعود أهلها إلى

(١) بيطرَ، يبيطر، بَيْطَرَةً، فهو مُبيطِر، والمفعول مُبيطَر: بيطرَ الدَّابَّةَ: عالجها، شقَّ حافرها ليعالجها.

(٢) ملوك العرب، ص ٥٥٩.

التمرُّد والعصيان، لكنها القوة الناعمة المتجذرة في النفوس التي أحيا جذوتها الملك عبدالعزيز، تلك القوة رباطٌ أعاد للوطن وحدته، إنه المنهاج والأساس الذي قامت عليه الدولة السعودية؛ الدين والقوَّة، العلم والسيف، القوَّة الناعمة والصلبة. يقول الرحالة الغربي دي جويري الذي زار الملك عبدالعزيز عام ١٣٤٢هـ، وجلس في مجلسه ووصفه بأنه «يداوم على قراءة القرآن وسماعه. ويكتب عن عادات الملك فيقول عنه إنه يصحو عادة قبل آذان الفجر ليستعد للصلاة في وقتها.

أما قراءة القرآن فيمكن أن يسمعها المرء في مجلس الملك بعد صلاة العصر حتى وقت العشاء. تجد المقرئين وقد اتخذ كلٌّ منهم موقعه في الناحية المحدَّدة له من ردهات القصر على مسافة ما من مجلس الملك، وقد حجبتهم عنه أعمدة الدهاليز المقوَّسة، إلا أنَّ ترتيلهم يسري ناعمًا إلى مجلس الملك كأنه النغمات يرسلها مزمار من على البعد»[١].

(١) روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، الجزء الثالث ١٩٠٠-١٩٥٢، دار الساقي، الطبعة الأولى ٢٠١٣م، ص٢٥٣.

ولم يقتصر الأمر هذا على مجالسه، بل كان يلتزم ذلك النهج دائمًا في حلِّه وترحاله، يقول الشيخ يوسف ياسين واصفًا إحدى الرحلات الملكية للملك عبدالعزيز بقوله: «ثم نركب فإذا مشينا نادى السلطان (ابن الشيخ) فيحضِر أحد طلاب العلم من أبناء الشيخ، ويأخذ بزمام ناقته أحد الخدم، فيتناول من حقيبته لأوَّل الأمر (صحيح مسلم) ويقرأ فيه ما شاء الله أن يقرأ، وبعد ذلك يأخذ تاريخ ابن الأثير فيقرأ فيه، وكان يقرأ لنا في الطريق منه السيرة النبوية التي كان لها في نفوسنا أثر عظيم يدعونا للتأسي بأعمال الرسول ﷺ وأصحابه الذين لاقوا من النَّصب والتَّعب في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ما لاقوا»[1]. لقد أصلح ما بينه وبين ربِّه فأصلح الله ما بينه وبين شعبه.

(١) الرحلة الملكية، سعادة الشيخ يوسف ياسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جمع وتنقيح عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، المكتبة المكية-مكة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦-١٩٩٦م، ص ٩٢. نقلًا عن جريدة أم القرى، العدد ١٦، ٢ رمضان ١٣٤٣هـ، الرحلة السلطانية، رقم ١٣.

ويقول الزِّركلي: «أخبرني أحد ضبَّاط القصر الملكي، قال: رأيت الملك عبدالعزيز في الهزيع الأخير من الليل، عند صلاة الفجر، يتمسَّك بأستار الكعبة، ويدعو الله قائلًا:

[اللهمَّ إن كان في هذا الملك خيرٌ لي وللمسلمين، فأبقه لي ولأولادي. وإن كان فيه شرٌّ لي وللمسلمين، فانزعه منِّي ومن أولادي!]»[1]. فاستجاب الله دعاءه ومكَّنه فتحقَّق الحلم، وساد العدل، وعمَّ الخير للجميع. إنها العلاقة الندِّية والنموذج الأمثل في الحكم، فقد جرَّبت بعض المناطق -في أثناء سقوط الدولة السعودية الأولى ثمّ الثانية- الفوضى فوجدوا البلاء والخوف، وجرَّبوا حُكَّامًا آخرين فرأوا منهم القسوة والظلم؛ ولهذا ما إن عاد الحكم السعوديُّ للمرّة الثالثة حتى حنَّت القلوب، وهفت النفوس، وتسابق الناس يعلنون الولاء والطَّاعة، وينكرون على البغاة جنوحهم.

(١) شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ص ١٠٥٦.

ولو استنطقت التاريخ لأخبرك عن الفجوة والقطيعة بين الحكام والمجتمع في ذلك الوقت. يقول الرَّاوي عندما دخل الحجاز تحت السِّيادة السُّعودية: «في جمادى سنة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م كُنْتُ زائرًا للمرحوم خالد بن لؤي في بيت الإمارة بمكَّة، وكان -إذ ذاك- أميرها فرأيتُ أمام الشيخ ابن داوود، -وهو قاضي الخُرْمَة وقاضي مكَّة في أول عهد استيلاء ابن سعود- رأيتُ رجلين يتخاصمان؛ أحدهما من الأشراف من سكَّان الطائف، والآخر من صُنَّاع الساعات، وكان هذا الشريف أعطى الساعاتي ناظورًا لإصلاحه، ولما أصلحه ادَّعى أنَّ الإصلاح الذي عمله لم يكن طِبق الشرط، والرجل الآخر يدَّعي بأنه طِبق الشرط، ويطلب تحويل المسألة إلى رجلٍ خبير. أراد الشريف أن يجلس بجوار خالد بن لؤي فنَهرَه الشيخ وأمرَه أن يجلس أمامه مع خَصمه، وأنَّهما أمامه سواء، وبعد أن سَمِعَ الشيخ الدعوى حَكَم على الشريف بما يُقدِّره صانعٌ خبير. فقال الصانع: وإن لم يقبل الشريف ذلك فأنا مستعدٌّ أن أرُدَّ إليه الناظور كما كان، ولا أريد أن أطالبه

بشيءٍ مطلقًا جزاء أتعابي، فقال الشيخ: وما تقول في هذا؟ فارتبك الشريف، فالتفت إليه الصانع، وقال: الحمد لله، إنَّ وقوفي معك جنبًا لجنبٍ أمام القاضي يساوي عندي الدنيا وما فيها، لقد مَضى وقت الظلم، فقد كانوا يُكلفوننا بعمل الأشياء ولا يُعطوننا أُجرة، بل لا يتنازلون أن يُكلِّمونا، بل كانوا يضربوننا في بعض الأحيان، الحمد لله. فقال الشيخ القاضي: إنَّ الناس جميعًا أمام الشرع سواء، وإن الأشراف أولى الناس باتِّباع جدِّهم سيد الرُسل محمَّدصلَّى الله عليه وسلَّم الذي يقول: «يا فاطمة بنت محمَّد إنّي لا أملك لكِ من الله شيئًا».

والله يقول: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]. وهنا أخذَ خالد الناظور من الشريف، وقال: لا نُسلمه لك حتى تُسَلِّمَ الأجرة التي يُقدرها الخبير، فقبلَ الشريف ذلك مُرغمًا، وخرجَ وهو يطلب السلامة لأنه كان مُحوطًا بالإخوان الذين كانوا

يُؤَمِّنون على أقوال الشيخ، ويُسمعون الشريف همسًا ما يكره من قوارص الكلم»[1].

وكان سالم السبهان من قبل ابن رشيد يسوم أهل الرياض أشدَّ أنواع العذاب، روى فيلبي: «أن جيش ابن رشيد قطع ما لا يقل عن ثمانية آلاف شجرة نخيل في الرياض»[2]. وأتذكرُ شخصيًّا كبار السن كانوا يتحدثون أنّ مزرعة أجدادي كانت تقع خارج سور الرياض، وأن جيش ابن رشيد يصعدون النخيل، ويضربون في قلب النخلة وتدًا قد غمسوه طيلة الليل بالدهن لكي ينتفخ في قلب النخلة ومن ثمَّ تموت.

إنَّ تلك المعاملة الصلبة والقطيعة بين الحاكم والمجتمع تزرع الكراهية، وتوجد البغضاء؛ ولهذا كان الناس يترقَّبون المُخلِّص، وينشدون المُنقذ، وما إن قدم المؤسس الثالث الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الرياض، وأعلن رجاله صبيحة الخامس من شوال عام ١٣١٩هـ أنّ

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين، حافظ وهبة، ص١٠٦، ١٠٧.
(٢) تاريخ نجد ودعوة محمّد بن عبدالوهاب، ص٢٥٢.

المُلك للّٰه ثم لعبدالعزيز، حتى فرح به أهالي الرياض والتفُّوا حوله. يقول العم عبدالله العبيكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، -تُوفي عام ١٤٠٠هـ وعمره فوق المئة، وأدرك دخول الملك عبدالعزيز الرياض-: كنتُ فتى يافعًا ذلك اليوم، وبعد أن سمعنا الخبر أسرعنا إلى قصر الحكم نتشفَّى ونشمت بأمير ابن رشيد عجلان، ونرى ماذا حصل له، وإذ بنا نراه مقتولًا وجثته مرمية، فأخذنا نقذفها بالحجارة ونرقص؛ فرحًا بزواله، وفرحًا بعودة الحكم السعودي، إنه الولاء المُتجذِّر، والعلاقة الندية بين المجتمع السعودي وحكَّامه الذين يتوارثون الملك كابرًا عن كابر.

إنّ قراءة سيرة الملك عبدالعزيز، وتأمُّل مواقفه، والنَّظر في معالجته للكثير من الأحداث، تؤكِّد أنَّ الملك استمال القلوب قبل الأجسام، وساد بالعقل قبل السيف، وملك بالرقَّة قبل القوَّة. تعامل مع الفرسان الأشاوس، ومع الدَّهاة الأبطال، فأرخَو أعنَتهُم لقيادته، وجمع اللّٰه له الهيبة والمحبَّة، والخشونة والنُّعومة،

فعنده رباط الخيل والقوَّة، ولديه رباط العقل والرقَّة. استقطب العقول والخبرات، وتوفَّرَت لديه مقوِّمات الزعامة، فالدَّهاء والفراسة قبل السيف والعنف، والحلم والتسامح، قبل البندقية والخشونة.

يقول الراوي: «إن عبدالعزيز ابتسم مرَّة في مجلسه، وفي ضيافته الشيخ نوري الشعلان رَحِمَهُ اللَّهُ شيخ قبائل الرولة العنزية، ففسَّر عبدالعزيز ابتسامته للضيف قائلًا: هل ترى هؤلاء الجالسين حولك يا أخ نوري؟! ما منهم أحد إلا حاربته وعاداني وواجهته. فردَّ الشيخ نوري قائلًا: سيفك طويل يا طويل العمر؛ فأوضح عبدالعزيز أنَّ السبب لم يكن السيف فقط، قائلًا: إنما أحللتهم المكانة التي لهم أيام سلطانهم، إنَّهم بين آل سعود كآل سعود»[1].

وصدق الملك ونفَّذ المعجزة التي انفرد بها دون سواه، وهي كسب القلوب، فاستَوْزَر وزراء خصومه، واستقدم عقول مناوئية، وحوَّلهم من العداوة إلى

(١) ملامح إنسانية من سيرة الملك عبدالعزيز، ص٤٣.

الصداقة، ومن العمل ضدَّه إلى العمل معه؛ فسبحان مقلِّب القلوب!، وسبحان من أرشده لمنهج فريد ما سلكه سواه، ولا اتَّبعه غيره!

إنَّ الدارس لسير الدول في الماضي والحاضر يرى التَّنكيل والتَّعذيب لرجال العهود السابقة، ويشاهد التشريد لعقول الماضي. أمَّا الملك عبدالعزيز فجاؤوا إليه يعتذرون فاصطفاهم وأكرمهم، ورأوا منه حسن المعاملة واحترام الإنسان.

يقول رئيس وزراء سوريا جميل مردم: «يمتاز الملك عبدالعزيز فوق خصال الشجاعة والكرم والعقل بتبسُّطه في الحديث، وعدم التكلف فيه، والمؤانسة لزائريه، وهو في جزيرة العرب ليس ملكًا، بل رئيس أسرة، ومن عجب شأنه أنَّ هذه الأسرة جمعت خصومه الأولين، وأعداءه وأولياءه في ساحته، وكان مما يعجبني - وقد تشرَّفت بأن كنت ضيفًا له مرَّتين - أن أرى على مائدته أو في الصيد معه أولئك الذين قاتلهم أو قتل آباءهم من قبل، يُعاملون معاملة الإخوة

والأبناء»[1]. إنّ الدارس لسيرة الملك المؤسّس يتملّكه العجب، وتأخذه الدهشة كيف استطاع أن ينقل بمهارة فائقة وزراء وأعوان أعدائه إلى ديوانه وفسطاطه، فمن إمارة آل رشيد استقطب رشيد بن الناصر بن ليلى، وعبدالعزيز بن زيد، وعددًا من أمراء آل رشيد ليكونوا في قمَّة المسؤولية. فابن ليلى كان وزيرًا لابن رشيد للشؤون الخارجية، فهو وكيلهم عند الأتراك، ومنحه السلطان عبدالحميد لقب (باشا)، ولخبرته السياسية الخارجية؛ عيَّنه الملك عبدالعزيز وكيلًا له في دمشق، كما استعمل عبدالعزيز بن زيد في مهمَّات تفاوضية مع الإنجليز، ثم عيّنه سفيرًا في دمشق وفي لبنان بعد وفاة ابن ليلى. وذاك فيصل الحمود الرشيد: «كان يقوم بمهمَّة رئيس أركان الحرب عند عبدالعزيز المتعب الرشيد، ثم تحوَّل مع الملك عبدالعزيز، وكان من رجاله»[2].

(١) من شيم الملك عبدالعزيز، ١/٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٠.

والأعجب من ذلك موقف آخر استطاع الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يجعل ابن القتيل من حرَّاسه الشخصيين، فذاك سليمان بن عجلان اسْتَلَّ الملك عبدالعزيز ضغينته، وحوَّله من العداوة إلى الصداقة، ومن الكره إلى الحب، فصار أحد كبار حرَّاسه، يأتمنه على نفسه، ويقف حارسًا على رأس الملك عبدالعزيز يَذُود عنه ويفتديه بنفسه، فوالده هو عجلان الذي انتصر عليه الملك عبدالعزيز في أثناء اقتحامه المصمك واسترداده للرياض[1]. إنها لوحة نادرة وحالة فريدة لا يمكن أن تُكرَّر في التاريخ، أمرٌ يُثيرُ العجب، ويبعث الفخر، ويستوجب الدراسة.

ويقول أحد رجال الملك عبدالعزيز: رأينا الملك يُدني مَنْ كانوا أشدَّ خصومة وعداوة له، بل صحبهم معه في غدواته ورَوْحَاتِه، وكان يقول لمن يذكِّره بماضي هؤلاء المحيطين به: «لقد أعدتُ ضمائرهم

(١) ملامح إنسانية من سيرة الملك عبدالعزيز، ص ٤٨.

إليهم، وإنِّي أكاد أقرأ ما يجول في نفوسهم من أسفٍ وندمٍ على ما صدر منهم»[١].

يقول يوسف ياسين عن الملك عبد العزيز: «ربما لا يجد الإنسان في التاريخ مثيلًا له، حيث يستصفي أعداءه حتى يجعلهم من أقرب المقربين إليه ومن أخلص الناس إليه، وهذا لا نعرف له مثيلا في التاريخ مما قرأناه وسمعناه»[٢].

يقول الدكتور علي الوردي: «اجتذب ابن سعود إليه بعض المستشارين من البلاد العربية المختلفة؛ لكي يطِّلع عن طريقهم على أحابيل السياسة العالمية، ولكنَّه لم يكن يقبل كل ما يقوله المستشارون، بل كان يستمع إلى كل واحد منهم، ويوازن بين أقواله، ثم يصدر حكمه النهائي بعد التروِّي. ولوحظ أنه لم يكن يحب من مستشاريه أن يؤيِّدوه في كل ما يقول، بل كان يريد منهم أن يصارحوه الرأي. إنَّ ابن سعود يختلف

(١) خمسون عامًا في جزيرة العرب، حافظ وهبة، ص٣٢.

(٢) مذكرات يوسف ياسين ١٨٩٦ - ١٩٢٤ م، ص ١٩٩.

في هذا عن بعض رجال الحكم الذين اعتادوا على تقريب المدَّاحين والمتزلفين، فضاعت بذلك عليهم حقائق الحياة. وحاور رَحِمَهُ اللَّهُ دهاقنة السياسة، فوجدوه ألمعيًّا يدرك الأهداف، ويلمح الأطماع»[1].

وقصةٌ أخرى تحكي سماحة الملك وكسبه القلوب، يقول الراوي: كان رشيد الناصر بن ليلى من كبار رجال عبدالعزيز بن رشيد اسمًا وعملًا، فهو يقوم مقامه في التفاوض، ويوقّع نيابة عنه، وكان ابن رشيد يختم له على أوراق بيضاء ويسلِّمها له ليفاوض السلطان التركي نيابة عنه، وكان من أهم الأعمال التي قام بها لابن رشيد، أنه أتى بأسلحة حديثة من صنع الألمان عندما كان الأتراك والألمان يُشكِّلون حِلفًا واحدًا في الحرب العالمية الأولى، وكان ذلك السلاح يُعرف في نجد بسلاح ابن ليلى، وحين انتهى حكم آل رشيد في حائل بقي رشيد بن ليلى في تركيا سنوات، ولكن ضاقت به الأرض، وحنَّ لدياره وأهله، وكتب للملك عبدالعزيز

(١) قصة الأشراف وابن سعود، ص ٢١٩.

يستسمحه في العودة إلى أهله بحائل التي غاب عنها أكثر من عشر سنوات، وأذن له الملك بالعودة، وجاء عن طريق البحر، وذهب ليسلِّم على الملك عبدالعزيز فوجد منه احترامًا فوق ما كان يحلم به، بل عيَّنه الملك عبدالعزيز عُضوًا في مجلس الشورى، وفي إحدى المناسبات التي أقامها عبدالله الفضل للملك عبدالعزيز، وحضرها عدد من وجهاء المجتمع، كان من بين الحضور ابن ليلى المذكور.

وتحدَّث الملك للحاضرين في أمور شتَّى حتى أشار إلى إصابة بيده، وقال: هذه الإصابة بيدي من قنبلة المدفع الذي بعثه هذا الرجل مشيرًا إلى ابن ليلى، فردَّ ابن ليلى ظنًّا منه أنّ الملك يلومه ويُؤنبه، وقال: تلك أمَّة قد خلت لها ما كسبت، فردَّ عليه الملك عبدالعزيز باحترام وتقدير، وقال له: إنَّ عملك هو من أعمال الأوفياء مع بني قومهم، ولا تثريب عليك، ولك الكرامة والتقدير. ثم عيَّنه ممثلًا للملكة في سوريا حتى لقي ربه[1].

(١) من شِيَم الملك عبدالعزيز، ١/ ١٦٤.

مُعاملةٌ ليّنة لأعداء الأمس، ومُعاملة طَريَّة لرجالٍ، يتذكر الملك جروحَه وإصابته منهم كلما رآهم، ولكنَّه السمح الكريم يتناسى الألم، ويطوي الكره ويُحَوِّلُ بمهارة نادرة أولئك المناوئين إلى أصدقاء، وبُناة للبيت السعودي.

إنّ هذه المواقف الكبيرة والمآثر الجليلة تكشف عن دهاء الملك عبدالعزيز وإنسانيته وعظمته وتسامحه وبُعد نظره وعلُوِّ همَّته، فقد جعلَ من خُصومه رجالًا له، وصيَّر عداوتَهم عطفًا ومحبةً: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

لقد زرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قلوب شعبه المحبَّة والمودَّة، يقول حافظ وهبة: «في صيف سنة ١٣٤٤هـ -أغسطس سنة ١٩٢٥م، كُنتُ جالسًا في حضرة السلطان عبدالعزيز (الملك عبدالعزيز) في مكَّة في قصره في

المعابدة (المعروف ببيت السَّقَّاف)، وكان من عادته أن يجلس على شرفةٍ داخل البيت، ويشرف على الطريق بوساطة نافذةٍ كبيرة ليرى الغادي والرائح، فمر رجلٌ بدوي حاول أن يتكلّم مع أحد الحُراس فنهره، فقال الرجل: لعلِّي لم أُذنب يا محفوظ، لعلِّي لم أخطئ، لقد بِتُّ من غير عشاء، فنالت هذه الكلمة الجهة الحساسة من الملك عبدالعزيز، فناداه: ما بالك أيها الرجل! أدخلوه، فلما حضر أمام عظمته قصَّ قصته بالتفصيل: من أنه وصل إلى مكَّة بعد الغروب بساعتين، ثم طلب شيئًا يأكله ولو تمرًا يدفع به غائلة الجوع فلم يُسعفه أحد؛ فنادى عظمة السلطان القائمين بأمر المضيف والمشرفين عليه، وهما: إبراهيم بن جُميعة وابن إدريس، وثارت ثائرته حينما رآهما، ثم أخذَ يوسعهما ضربًا بنفسه حتى كادا يهلكان، ثم أوقفهما عن الخدمة بضعة أيام ورَدَّهما بعد توسُّط بعض المقربين»[1]. لقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يغرس المحبَّة والمودَّة في قلوب الكل، ويهتم بالضعيف، ويرقب موظفيه.

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ١١٠.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُوصي أبناءه بقراءة التاريخ والعبرة بما حصل للأوائل، يقول حافظ وهبة: «حضرنا إلى مجلس الملك، وكان ولي عهده الأمير سعود هو رئيس الرَّكب أخذ جلالة الملك يعطيه درسًا من أنفَس الدروس في المراقبة والملاحظة، وعدم الاعتماد على الخدم، ثم أخذ يقصُّ علينا درسًا تاريخيًّا فيما أصاب أعمامه من تركهم الحبل على الغارب للخدم الذين لم يكونوا يُراعون مراكز الناس ومشايخ القبائل حتى انفضَّ الناس من حولهم»[1]، ويقول: «سمعتُ كثيرًا جلالة الملك عبدالعزيز ينصح أولاده بعدم الركون إلى الخدم وبعض الموظفين، وتصفح الشؤون العامة بأنفسهم، وكثيرًا ما يضرب المثل بعمّه عبدالله بن فيصل، وركونه إلى خدمه الذين أساؤوا إلى الناس، فانصرفت قلوب الناس عنه، وانفضُّوا من حوله»[2].

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١١.

«التقى جمعٌ من أمراء القبائل عند الملك عبد العزيز في يومٍ من الأيام، وأخذت كل قبيلة تفاخر بنسبها وتعتز، فُوجِئَ الملك عبد العزيز بسؤالٍ من أحد الحاضرين: ما هو نسبك يا عبد العزيز؟ من أي القبائل أنت؟ فنادى أحد رجاله وقال: ائتني بسيفٍ ومصحف، ثم قال: نسبي هذا السيف، به أخدم هذا الكتاب الكريم ، فإني لا أرى لي نسبًا غير هذين»[1].

هُو ذكيٌ لَمَّاح، لم يُفاخر بنسبه الرفيع، يَحذرُ مُسببات الفرقة، ويعلم أن العصبيات القَبَلية، وغيرها من التَحَزُبات الأخرى تُفرق المجتمعات، وتُثير الشحناء، ولذا كان جوابه عندما سُئل عن قبيلته أنْ رَفعَ المصحف والسيف، القوة الناعمة والقوة الصلبة، فَبِهما افتخَر، وأقام الدولة.

ذلكم الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يهتمُّ بشؤون الدولة، ويرعى أبناءه ويُعلِّمهم ويُعدَّهُم لقادم الأيام، والحمد للّه حفظ أبناؤه الملوك من بعده وصيَّته، ونقلوا المملكة

(١) كتاب (لسراة الليل هتف الصباح)، ص ١٠١.

من حسنٍ إلى أحسن حتى صارت في مصاف الدول المتقدِّمة، وها هو خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله يقتفي خُطاه ومنهجه في الحكم، ويُردِّد دومًا كثيرًا من مقولات الملك عبدالعزيز، ويستضيء بها في إدارة شؤون الدولة.

الفصل التاسع

القرار التاريخي

القارئ في تاريخنا الوطني وفي سيرة الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتوقف عند موضوع لا يخصُّ المملكة وحدها، ولكن يتجاوز أثره وتأثيره إلى العالم الإسلامي كله، هو شأنٌ عظيم أعاده الملك عبدالعزيز لما كان عليه في عهد النبوة والراشدين والعصور الأولى للمجد الإسلامي، إنه موضوع جدير بالعرض، وحريٌّ بالفخر؛ إذ يرتبط بإمامة الحرم في مكة المكرمة؛ ففي تلك البقاع المقدسة تكوَّنَت وتأسست تلك القوة الناعمة التي اجتاحت الأرض، ونشرت السماحة والأخوة الإيمانية، والحب في الله؛ إذ يلتقي في تلك البقاع المقدسة ملايين البشر بلباسٍ واحد، وهتافٍ واحد، ودعاءٍ واحد؛ إمام المسجد الحرام يأتمُّ به ملايين

البشر، تُنظمهم كلمة الله أكبر، يُرتبُون صفوفهم صفًّا صفًّا، وهناك كانت المعجزة التي نفذها الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وتجسدت بالشجاعة والعظمة، فكان القرار التاريخي الجَسور، والعبقرية الفريدة؛ لجمع كلمة المسلمين وتوحيد قلوبهم وفق منهج واحد، فطوى التعصب المذهبي، واقتلع جذوره الممتدة لأكثر من ثمانية قرون خلت!

ورد في كُتب التاريخ أنه أُنشئت مقاماتٌ أربعة في المسجد الحرام بين القرنين الرابع والخامس الهجري ليُصلي أربعة أئمة في وقتٍ واحد[1]، وزار الرحالة ابن جبير مكة عام ٥٧٩هـ، وروى ما شاهده، يقول: «وللحرم أربعة أئمة سنيَّة، وإمام خامس لفرقةٍ تسمى الزيدية، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم، وهم يزيدون في الأذان: (حي على خير العمل) إثر قول المؤذن: (حي على الفلاح) وهم روافض سَبَّابون، والله

(١) كتاب تاريخ مكة: ٢٥٣/١.

من وراء حسابهم وجزائهم، ولا يُجَمِّعون[1] مع الناس إنما يصلون ظُهرًا أربعًا، ويُصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

فأول الأئمة السنية الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنما قدَّمنا ذكره؛ لأنه المقدَّم من الإمام العباسي، وهو أول من يصلي، وصلاته خلف مقام إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى نبينا الكريم، إلاَّ صلاة المغرب فإن الأربعة الأئمة يُصلونها في وقتٍ واحد مجتمعين لضيق وقتها: يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة، وربما دخل في هذه الصلاة على المُصلين سَهوٌ وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي أو سلَّم أحدهم بغير سلام إمامه، فترى كل أُذن مُصيخَة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو، ومع هذا فيحدث السهو على كثيرٍ من الناس، ثم المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يصلي قبالة الركن اليماني، وله محراب حجر يشبه محاريب الطرق

(١) يُجَمِّعون: يُصلون الجمعة.

الموضوعة فيها، ثم الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيمٍ مصنوع له، وهو أعظم الأئمة أُبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها بسبب أن الدولة الأعجمية كلها على مذهبه، فالاحتفال له كثير، وصلاته آخرًا. ثم الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصلاته مع صلاة المالكي في حين واحد، موضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ويصلي الظهر والعصر قريبًا من الحنفي في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، والحنفي يصليهما في البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب قبالة محرابه ولا حطيم له، وللشافعي بإزاء المقام حطيم حفيل» [1].

وبعد ابن جبير زار ابن بطوطة مكة عام ٧٢٦هـ؛ أي بعد مئة وسبعة وأربعين عامًا، ووجد الصلاة في المسجد الحرام كما روى ابن جبير، يقول ابن بطوطة: «ومن عادة أهل مكة أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية، وهو المُقدَّم من قِبل أولي الأمر، وصلاته خلف المقام

(١) كتاب رحلة ابن جبير: ص ٧٨، ٧٩.

الكريم مقام إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في حطيم له هنالك بديع، وجمهور الناس بمكة على مذهبه، والحطيم خشبتان موصولٌ ما بينهما بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان على صفتهما، وقد عُقدت على أرجل مجصَّصة، وعرض على أعلى الخشب أخرى فيها خطاطيف حديد يُعلق فيها قناديل زجاج؛ فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني، ويصلي إمام الحنبلية معه في وقتٍ واحد، مقابلًا ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنفية قبال الميزاب المكرَّم تحت حطيم له هنالك. ويوضع بين يدي الأئمة في محاربهم الشَّمع، وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع؛ وأما صلاة المغرب، فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يُصلي بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهوٌ وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم مصغين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يُسمع طائفته لئلا يدخل عليه

السهو»[1]. هذه روايات شهود عيان في القرن السادس والقرن الثامن الهجري.

أما الخطابة في الحرم فكانت لواحدٍ من الأئمة الأربعة، جاء في (تاريخ مكة) أنه في عهد محسن بن الحسين بن الحسن أبو نمي عام ١٠٣٤هـ «كانت خطبة عيد الفطر للإمام زين العابدين الطبري وهو من الأئمة الشافعية، وكان المُتبَع أن يُعِدَّ الخطيب (سماطًا)[2] في بيته لاستقبال رُواده بعد صلاة العيد مباشرةً، فلما تأهب لهذا في آخر يوم من رمضان وافى نبأ مستعجل من دار الخلافة بنقل الخطبة إلى أئمة الحنفية، وهو المذهب الشائع في سائر بلاد التُرك، وقد اتصل النبأ بوالد زين العابدين فحاول المراجعة قبل أن يُبلغ الخبر ابنه فلم ينجح، وعندما عاد إلى داره مساء ذلك اليوم كان ابنه قد أعدَّ لكل شيءٍ عُدته، فلما أخبره بالأمر شهق شهقةً فاضت فيها روحه، وهكذا اعتلى خطيب

(١) كتاب رحلة ابن بطوطة: ص ١٤٥.

(٢) السِماط: هو ما يُبسَط لوضع الطعام.

الحنفية المنبر بينما كان جثمان خطيب الشافعية في نعشه على خطواتٍ منه ينتظر صلاة الجنازة »[1].

وحين دخل الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مكة عام ١٣٤٣هـ، ورأى ذاك التصرف المذهبي، وتلك التفرقة، كان قراره الشجاع المتمثل في إيقاف ذاك التعصب، ومنع ذاك الخلاف الذي يضعف الوحدة، ويورث العداوة، ويبعث الكراهية، فجمع المصلين خلف إمام واحد، واختفى ذاك الشتات، وزال ذاك التنافر، فصار الحرم مكان اجتماع، ومقر اتحاد يأتي إليه جميع المسلمين من كل أقطار الأرض، ويصلون خلف إمامٍ واحد، وبات الخصوم يخشون تلك الوحدة، ويهابون اجتماع رأي المسلمين ووحدة كلمتهم، ويسعون بكل الوسائل للتفرقة والتخويف والتشكيك والتخوين، ولكن الأعداء كل عام يرون باطلهم في عرفات يذهب جفاءً، ويشاهدون كيدهم في منى يرتد حسرة، وحين تعرض قنوات التلفزة إمام الحرمين في

(١) كتاب تاريخ مكة: ٢/ ٤١٠: ٤١١.

العشر الأواخر من رمضان، وفي العشر الأُول من ذي الحجة، وملايين البشر خلفه، يتحركون بتكبيراته، ويبكون ببكائه، ويؤمِّنون على دعائه، تزداد حسرتهم؛ إنها القوة الناعمة المباركة، اختص الله بها مملكتنا الغالية، ورعاها وخدمها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فجعلوا خدمة الحرمين همَّهم الأول وشرفهم الذي يفخرون به! إن قرار الملك عبدالعزيز التاريخي الحازم بتوحيد إمامة الحرم فور توليه سلطة مكة، أوقف خلافًا لو استمر لعشنا تعصبًا مذهبيًّا مقيتًا، وصراعًا قد يتحول إلى بغضاء وكراهية بين قاصدي بيت الله الحرام، وربما لقطيعة بين دول العالم الاسلامي، ولو بقي الأئمة كما كانوا سابقًا مع مكبرات الصوت الحالية، وسعة الحرم، وكثافة البشر، لكان مشهد المصلين في الحرم، مثار سخرية العالم، بتداخل الأصوات، وارتباك المصلين، وحيرتهم بين أصوات الأئمة! رحم الله جامع الكلمة، ومُوَحِّد الإمامة والأمة -بفضل الله وتأييده- الملك عبدالعزيز.

الفصل العاشر

شهاداتٌ تاريخية

في هذا الفصل سوف نَسْتَنبط الحقيقة التي يحاول الخصوم إخفاءها وتشويهها في تاريخنا الوطني؛ كيدًا منهم، سوف نستحضر بعضًا مما كتبه بعض المؤرخين المُجرَّدين من عواطف الحبِّ الوطني، ومن الكُره والكيد لبلادنا الغالية، فقد كتبوا وهم بعيدون عن السُلطة السعودية، سوف نشمّ الرأي المحايد، والرأي الذي يعرض التاريخ، ويَكتب الحقائق.

ومن أولئك؛ المؤرّخ المصري عبدالرحمن الجبرتي الذي عاصر الدولة السعودية الأولى حتى سقوطها، فقد توفي عام ١٢٣٨هـ، هذا المؤرِّخ عاش في مصر، وكغيره من المؤرِّخين السابقين يكتبون ما يسمعونه ويقرؤونه من أخبار تَرِد إليهم؛ يقول:

«فلا أكتبُ حادثةً حتى أتحقَّق صحتها بالتواتر والاشتهار، وغالبها من الأمور الكُلِّية التي لا تقبل الكثير من التحريف، وربما أخَّرْتُ قيد حادثة حتى أُثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتُبُها في طيّارةٍ[1] حتى أُقَيِّدُها في محلِّها إن شاء الله تعالى»[2].

قال عن الأحداث في سنة ١٢٢١هـ: في شهر محرم من هذه السنة، وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للإمام سعود بن عبدالعزيز، ودخوله بيت الطاعة السعودي، ويستعرض واقع الحجاز قبل سُلطة الإمام سعود وبعدها، فيقول عن فترة الشريف: «كان الأردب المصري من الأرز يُباع بخمس مئة ريال، والأردب البُر بثلاث مئة ريال، وقِس على ذلك السمن والعسل، وكان الميِّت في عهد الشريف يأخذون عليه خمسة فرانسه وعشرة بحسب حاله، وإن لم يدفع أهله القَدْرَ الذي يتقرَّر عليه فلا يَقْدرون

(١) طيَّارة: يقصد بها ورقة متحرِّكة معه.

(٢) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص ٣١٥.

على رفعه ودفنه، ولا يتقرَّب إليه الغاسل ليغسله حتى يأتيه الإذن، وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم التي أحدثوها على المبيعات والمشتريات على البائع والمشتري، ومُصادرات الناس في أموالهم ودُورهم، فيكون الشخص من سائر الناس جالسًا بداره، فما يشعر على حين غفلة منه إلا والأعوان يأمرونه بإخلاء الدار وخروجه منها، ويقولون إنَّ سيد الجميع محتاجٌ إليها، فإمَّا أن يخرج منها جملةً وتصير من أملاك الشريف، وإمَّا أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر»[1].

ومن هذا العرض التاريخي نعرف الفرق بين التطبيق الحقيقي للدين الذي التزمت به الدولة السعودية الأولى، وامتثلت لتعاليمه وطبَّقَتْه في كل شؤونها، وهي أحوج ما تكون للمال، فلم تُصادر أملاك الناس، ومنعت المظالم والمُنكرات، وأمَّنَت السُبل، ورخَّصَت الأسعار، في حين خصومها الشاتمون

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص١١٦.

المُشوِّهون لتاريخها يظلمون مَنْ تحتهم ويمنعون دفن الموتى حتى تُدفَع لهم الأموال، وتبلغ حملاتهم الإعلامية ضدَّ الدولة السعودية ذُروتها حين زعموا أنَّ الإمام سعود بن عبدالعزيز منع الحجيج الشامي والمصري. يقول ذلك المؤرخ: «ليس الحال كذلك، فإن الإمام سعود بن عبدالعزيز لم يمنع أحدًا يأتي الحجَّ على الطريقة المشروعة، وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يُجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة، وقد وصل طائفةٌ من حُجَّاج المغاربة وحجُّوا ورجعوا في هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحدٌ بشيء»[1]. بل يقول عن الحُجَّاج المغاربة: «في مُستهلِّ شهر ربيع الآخر عام ١٢٢٧هـ، وصل الحُجاج المغاربة، وسبب تأخُّرهم أنَّهم وصلوا عن طريق الشام، وهلك الكثير من فقرائهم المشاة، وأخبروا أنَّهم قضوا مناسكهم وحجُّوا وزاروا المدينة، وأكرمهم السعوديون إكرامًا زائدًا»[2].

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص٢٤٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٥.

وكما نقرأ اليوم الهجوم على المملكة ومنهجها الوسطي المعتدل، نلحظ أنَّ هذا ليس غريبًا، فقد كانوا يقومون بهذا الأسلوب الخبيث ذلك الوقت حينما أصدروا الفتوى بأن الدولة السعودية الأولى خوارج، وأنَّهم كفار؛ لأنّهم كما زعموا يُكفِّرون المسلمين، ويجعلونهم مشركين. وبلغ مكر الخصوم وكيدهم ما حَكَاه الجبرتي عن التواصل بين الشريف غالب وحاكم مصر. يقول: «والشريف غالب يُكاتب الباشا ويُراسله، ويُظهر له النصح والصداقة وخلوص المودَّة، والباشا أيضًا يُراسله ويُكاتبه، وأرسل له السيد سلامة النجاري، والسيد أحمد المنِّلا الترجمان المحروقي، بمراسلاتٍ وجوابات مرارًا عديدة، فكأنَّهما السفيران بينهما، وأيضًا الشريف في كل كتابة مع كل مرسل يُعاهد الباشا ويعاقده ويواعده بنصر عساكره متى وصلت، ويُنافق للطرفين الذي هو العثماني، وابن سعود ويُداهنهما. أما ابن سعود؛ فلخوفه منه، وعدم قدرته عليه، فيظهر له الموافقة والامتثال، وأنه معه على العهود التي عاهده عليها من ترك الظلم، واجتناب

البدع، ونحو ذلك، ويميل باطنًا للعثمانيين؛ لكونه على طريقتهم ومذاهبهم، وتعاقد مع الباشا أنه متى وصلت عساكره قام بنُصرتهم وساعدهم بكليته وجميع همَّته»[1].

ويُشير ذلك المؤرخ إلى مكر الخصوم، وكيف تواصلوا مع ضعيفي الدين ورخيصي الضمير، فيذكر أنَّ القائد المصري لما وصل إلى ينبع البر «أخذ في تأليف العُربان واستمالتهم بالمال، وتواصلوا مع أحد شيوخ القبائل وأقنعوه حتى حضر للقائد، فأكرمه وخلع عليه وعلى جميع من حضر معه، فألبسهم الكساوي والفراوي السمور والشالات الكشميري، ثم حضر مشايخ آخرون فخلع عليهم، وأعطاهم، ورتَّب لهم مكافآت لكل شخص خمسة فرانسة وغرارة بقسماط وغرارة عدس»[2]. ويذكر أنَّ تلك الترتيبات تمَّت بتدبير من الشريف غالب ومشورته. ولكن تدور الدائرة

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص ٣٣٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٩٧.

على الخونة، ففي سنة ١٢٢٩هـ قَبَضَ حاكم مصر على الشريف غالب، ورَحَّلَه وأولاده إلى مصر، لقد قَبَضَ على الرجل الذي وَثق به الإمام سعود، وأعطاه الأمان، وأبقاه سيدًا في مكَّة، يقول ابن بشر: «في سنة ١٢٢٦هـ حجَّ الإمام سعود بن عبدالعزيز الحجَّة السابعة، وحججتُ في تلك السنة، وشهدتُ سعودًا وهو راكبٌ مطيَّته، محرمًا بالحج، ونحن مجتمعون في نَمِرة لصلاة الظهر، وخَطَبَ فوق ظهرها خطبةً بليغة، ووعظ الناس فيها، وعلَّمهم المناسك، وذكَّرهم ما أنعم الله عليهم به من الاعتصام بكلمة لا إله إلا الله، وما أعطى الله في ضمنها من الاجتماع بعد التَّفرق وأمان السُبُل، وكثُرة الأموال، وانقاد عُصاة الرجال، وأن أضعف ضعيف يأخذ حقَّه كاملًا من أكبر كبير من مشايخ البوادي، وأعظم عظيم من رؤساء البلدان»[1]. وعن الشريف غالب يقول ابن بشر: «ورأيتُ الشريف غالب أقبل فوق حصانه ونحن جلوسٌ في الصف وليس معه

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ٢٠١/١.

إلا رجلٌ واحد، ونزل سعود من كور مطيَّته وسلَّم عليه وتعانقا»[1]. ويتناول الكاتب الهندي مسعود الندوي تلك العلاقة فيقول: «كان الإمام سعود طاهر النية مُخلصًا، فترك غالبًا وإمارته، أما محمَّد علي فكان رجلًا ماديًّا بحتًا همُّه الدُّنيا فقط، فكان أوَّل عملٍ عملَه بعد تثبيت أقدامه هو القضاء على هذا المسكين... لم يكن من المُتَوقَّع من رجلين مَكَّارين مثل محمَّد علي وغالب أن يثق كلٌ منهما بالآخر»[2].

إنَّهم الظَلَمة يوالي بعضهم بعضًا، عندما تَخمُد مخافة الله فإن الظلم والكذب والموبقات تتفشى. يستعرض المؤرخ الجبرتي ظُلم محمَّد علي لأهل مصر قبل أن يمتد ظلمُه لبلادنا الطاهرة، وكيف كانوا يقسون على السكان، ويجمعون منهم الأموال ويجبون منهم القوت، حتى إبراهيم بن محمَّد علي باشا سافر إلى صعيد مصر، وفعل بهم الأفاعيل، يقول المؤرِّخ:

---

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد، ٢٠٢/١.

(٢) محمّد بن عبدالوهاب، مُصلحٌ مظلوم ومُفتَرَى عليه، ص١٢٧.

«فعل بهم فعل التتار عندما جالوا بالأقطار، وأذلَّ أعزة أهله وأساء أسوأ السوء معهم في فعله، فيسلب نعمهم وأموالهم، ويأخذ أبقارهم وأغنامهم، ويحاسبهم على ما كان في تصرِّفهم واستهلكوه، أو يحتجَّ عليهم بذنبٍ لم يقترفوه، ثم يفرض عليهم المغارم الهائلة والمقادير من الأموال التي ليست أيديهم إليها طائلة، ويُلزمهم بتحصيلها وغلاقها وتعجيلها، فتعجز أيديهم عن الإتمام، فعند ذلك يُجري عليهم أنواع الآلام من الضرب والتعليق والكي بالنار والتحريق؛ فإنه بلغني -والعهدة على الناقل- أنه ربط الرجل ممدودًا على خشبةٍ طويلة، وأمسك بطرفيها الرجال، وجعلوا يُقلِّبونه على النار المُضرمة مثل الكباب، وليس ذلك ببعيدٍ على شابٍ جاهل سنُّه دون العشرين عامًا، وحضر من بلده ولم يرَ غير ما هو فيه لم يؤدِّبه مؤدِّب، ولا يعرف شريعةً ولا مأمورات ولا منهيَّات، وسمعتُ أنّ قائلا قال له: وحقِّ من أعطاك. قال: ومن هو الذي أعطاني؟ قال له ربُّك. قال له: إنه لم يُعطني شيئًا، والذي أعطاني أبي، فلو كان الذي قُلت فإنه كان يُعطيني وأنا ببلدي، وقد جئتُ

وعلى رأسي قبع مزفت مثل المقلاة، فلهذا لم تبلغه دعوى، ولم يتخلَّق إلا بالأخلاق التي دربه عليها والده، وهي تحصيل المال بأي وجهٍ كان، فأنزل بأهل الصعيد الذل والهوان»[1].

لقد ظهرت الدولة السعودية الأولى في وقتٍ ساد فيه الظُلم، وخَبَت فيه العدالة التي جاء بها الإسلام، يقول ربعي بن عامر حين كان مندوبًا للقائد سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية لرستم، وقد سأله لماذا جئتم إلينا في فارس؟ قال: اللّهُ بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل السماء.

وها هو طه حسين عميد الأدب العربي يستعرض أوجه الشبه بين دعوة الشيخ محمَّد بن عبدالوهاب ودعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول: «ومن الغريب أنَّ ظهور هذا المذهب الجديد[2] في نجد قد أحاطت به ظروفٌ

(١) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص٤١٧، ٤١٨.

(٢) هكذا جاء النص، والحقيقة أن الشيخ محمَّد بن عبدالوهاب لم يأتِ بمذهبٍ=

تُذكِّر بظهور الإسلام في الحجاز، فقد دعا صاحبه إليه باللِّين أول الأمر فتبعه بعض الناس، ثم أظهر دعوته فأصابه الاضطراب، وتعرَّض للخطر، ثم أخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض النبي نفسه على القبائل، ثم هاجر إلى الدرعيَّة وبايعه أهلها على النصر كما هاجر النبي إلى المدينة. ولكن ابن عبدالوهاب لم يُرد أن يشتغل بأمور الدنيا، فترك السياسة لابن سعود، واشتغل هو بالعلم والدين، واتخذ السياسة وأصحابها آداةً لدعوته، فلمَّا تمَّ له هذا أخذ يدعو الناس إلى مذهبه، فمن أجاب منهم قبل منه، ومن امتنع عليه أغرى به السيف، وشبَّ عليه الحرب، وقد انقاد أهل نجد لهذا المذهب، وأخلصوا له الطاعة، وضحوا بحياتهم في سبيله على نحو ما انقاد العرب للنبي وهاجروا معه»[1].

= جديد، فهو مجددٌ للدعوة الحقَّة التي جاءت من السماء، وبلَّغها سيد البشرية رسولنا محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) الحياة الأدبية في جزيرة العرب ، مقال نُشر بمجلة الهلال، العدد مارس ١٩٣٣م.

لقد أبدى طه حسين إعجابه الشديد بدعوة الشيخ محمَّد بن عبدالوهاب، وهو المحسوب على التنوير الغربي، وأكَّد أنَّ الدعوة في جوهرها دعوةٌ لإعادة الإسلام إلى صفائه ونقائه وتوحيده الخالص، يقول: «إن المذهب جديدٌ بالنسبة إلى المعاصرين، ولكنَّه قديمٌ في حقيقة الأمر؛ لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المُطهَّر من كل شوائب الشرك والوثنية، هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي خالصًا لله وحده، مُلغيًا لكل واسطةٍ بين الله وبين الناس، هو إحياءٌ للإسلام العربي، وتطهيرٌ له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب، فقد أنكر محمَّد بن عبدالوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهليةٍ في العقيدة والسيرة، كانوا يُعظِّمون القبور، ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله، ويُعظِّمون الأشجار والأحجار، ويرون أنَّ لها من القوَّة ما ينفع وما يضر، وكانوا قد عادوا في سيرتهم إلى حياة العرب الجاهليين، فعاشوا من الغزو والحرب، ونسوا الزكاة والصلاة، وأصبح الدين اسمًا

لا مُسمًّى له؛ فأراد محمَّد بن عبدالوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قومًا مسلمين حقًّا على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرنًا»[١].

ويتأسف طه حسين في مقاله المنشور في مجلة الهلال عدد مارس للعام ١٩٣٣ على تلك الدعوة والحقبة المباركة، وينتقد التدخل التركي المصري فيقول: «ولولا أنَّ الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه في داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها؛ لَكان من المرجو جدًّا أن يُوحِّد هذا المذهب كلمة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، كما وحَّد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول»[٢].

ويتناول طه حسين أثر تلك الدعوة الطاهرة في الحياة الفكرية بالعالم العربي، يقول: «الذي يعنينا

(١) الحياة الأدبية في جزيرة العرب، نُشر بمجلة الهلال، العدد مارس ١٩٣٣م.
(٢) المصدر نفسه.

من هذا المذهب أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب، وقد كان هذا الأثر عظيمًا خطيرًا من نواحٍ مختلفة، فهو قد أيقظ النفس العربية ووضع أمامها مثلًا أعلى أحبَّته وجاهدت في سبيله بالسيف والقلم واللسان، وهو قد لفت المسلمين جميعًا وأهل العراق والشام ومصر بنوع خاص إلى جزيرة العرب». ويقول: «عادت الحياة القويَّة إلى مذهب أحمد بن حنبل الذي تبعه النجديون، ونُشرت كتبٌ ورسائل كثيرة لابن تيمية وابن القيم، واستفاد العالم العربي كلُّه من هذه الحركة العقلية الجديدة».

وتقرأُ في كتابته الأسى والحسرة على ما أصاب تلك الدعوة فيقول: «نجح المصريون في إخماد هذه الثورة الوهابيَّة[1] أو قُلْ نجحوا في إفساد هذه النهضة ولكنَّهم لم يقتلوها». ويتناول العهد الثالث الزاهر من تاريخنا الوطني فيقول: «ثم تبعتها في هذه الأيام

(١) هكذا جاء النص، والحقيقة أنها ليست ثورة، هي دعوةٌ إصلاحية لتصحيح عقائد الناس.

نهضةٌ سياسية بَسَطَت سلطانهم على نجد كله وعلى الحجاز كله وأعادت لهم المَثَل الأعلى وهو توحيد الكلمة العربية».

ويختتم مقالته برؤيته لمستقبل المملكة، وهو ما تحقق ولله الحمد، يقول: «وجملة القول أنَّ جزيرة العرب الآن تشتمل على نوعين مختلفين من الحياة العقلية: إحداهما محافظة قديمة لا تزال قويةً بحكم الجهل وانتشار الأمِّيَّة، والأخرى مُجدِّدة لا تزال ناشئة بحكم الاتصال بأوروبا والبلاد الإسلامية الراقية، وسيشتد الصراع بين هذين النوعين من الحياة، ولكن النصر مُحقَّقٌ للحياة الجديدة؛ لأن جزيرة العرب قد فُتحت للحضارة الأوروبية، ولن تستطيع أن تغلق أبوابها بعد اليوم في وجه هذه الحضارة. وقد يُقال: إنَّ جزيرة العرب قد فُتحت للحضارة الإسلامية في القرون الأولى، ثم انغلقت من دونها، فما الذي يمنع أن تُفتَح للحضارة الحديثة الآن، ثم تُغلَق من دونها بعد حين؟ والجواب على ذلك يسيرٌ سهل، فقد كانت الحضارة

الإسلامية القديمة تدخل بلاد العرب على ظهور الإبل وفي الكتب المخطوطة، أما الآن فهي تقتحم هذه البلاد بالسيارات والبخار والتلغراف والتليفون والكتب المطبوعة والصحف والمجلات، وأنَّى للبادية أن تقاوم هذه القوى المختلفة؟ المستقبل إذًا للحياة الجديدة لجزيرة العرب، وسيكون هذا المستقبل قريبًا في بعض البلاد وبعيدًا في بعضها الآخر، ولكنَّه سيكون على كل حال»[1].

وتحقَّقت نبوءة الرجل، فَنَمَت بلادنا وتطوَّرت، فقد استثمرت في كل مجالات التنمية فصارت لها الصدارة والرِّيادة في المجتمع الدولي مع المحافظة على هويتها وثوابتها، رَفَعَت بيدٍ سورة العصر، والتزمت بتطبيق الشريعة الإسلامية، وجعلتها أساس الحكم، ورفعت بالأخرى صورة العصر الحديثة، وأخذت بكل وسائل التطور الحديثة وأساليبها.

(١) الحياة الأدبية في جزيرة العرب، نُشر بمجلة الهلال، العدد مارس ١٩٣٣م.

ويتحدَّث الشيخ المصري محمود شاكر عن الإنجليز المستشرقين ودورهم في تلك الحرب الظالمة فيقول: «كانت إنجلترا ومستشرقوها ما فَتِئَت تُخوِّف الدولة التركية وتُؤلّبها على مَهْد (اليقظة) في جزيرة العرب، والتي قام بها وأسّسها (محمّد بن عبدالوهاب) (١١١٥-١٢٠٦هـ/١٧٠٣-١٧٩٢م). واستجابت دار الخلافة بغفلتها إلى هذا التأليب، حتى جرّدت حملاتٍ متتابعة لقمع (اليقظة)، وآبت في جميعها بالإخفاق، ثم منذ وَلِي «محمَّد علي سرششمة»[1] جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتال السعوديين، وتتابع هذا الطلب من سنة ١٨٠٧م إلى سنة ١٨١٠م (١٢٢٢-١٢٢٥هـ)، فلم يستجب لنداء تركية، ولكن (الاستشراق) بقناصله زيَّن أخيرًا لمحمَّد علي سرششمة أن يستجيب؛ ليحقِّق مآربه في وأد (اليقظة) التي كادت تَعمُّ جزيرة العرب، وأمدوه بالسلاح الذي يُعينه على خوض الحرب، وذلك في سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، (أي بعد ولايته مصر بست

(١) سرششمة: أحسبه لقبًا أطلقه عليه الشيخ محمّد محمود حسين.

سنوات)، وسارت الجيوش قاصدةً جزيرة العرب، ودارت الحرب التي لم تنته إلا بعد ثماني سنوات، في سنة ١٢٣٥هـ-١٨١٩م[١]، وفقدت الجيوش المصرية آلافًا من أبنائها، ولقيَت هزائم كادت تُودي بها. وأخيرًا تمَّ النصر لمحمَّد علي سرششمة، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحلُّه مسلم، واستباح الديار والأموال والنساء، وهَدَم المدن، فكان هو وابنه إبراهيم وسائر أولاده طُغاةً من شرِّ الطغاة. وكانت حربًا طاحنة لا معنى لها، ولا ينتفع بها إلا مؤرِّخوها من دُهاة المسيحية الشمالية.

وكذلك أدرك (الاستشراق)، وأدركت المسيحية الشمالية مأربًا من أكبر مآربها في وأد (اليقظة) التي كانت تُهددهم بها دار الإسلام في جزيرة العرب، والتي كانت تخشى المسيحية الشمالية أن تنضم هذه (اليقظة) إلى (اليقظة) الكائنة في دار الإسلام في

(١) الصحيح أن انتهاء حرب محمّد علي باشا للدولة السعودية الأولى هو ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م.

مصر، فيومئذٍ لا يعلم غير الله ما تكون العواقب، وتمَّ كل ذلك على يَدِ مسلمين جَهَلَة يُوجِّههم (الاستشراق) والمسيحية الشمالية من حيث لا يُبصرون ولا يعلمون ماذا يُراد بهم، ولا إلى أيِّ هُوَّةٍ من الهَلَكة يُساقون. والأمر لله من قبلُ ومن بعد»[1].

وبعد، فإن تلك الأقلام قالت الحقيقة، وأبانت المؤامرات والكيد والمكر لبلادنا الغالية حرسها الله بعينه التي لا تنام.

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص١٣٧.

الخاتمة

لكل نظام قوَّته الصلبة والناعمة، وتتفاوت الدول في حجم تلك القوَّة وتأثيرها، وتتشابه الأمم في القوَّة الصلبة، لكن يتفوَّق القَوي على الضعيف، والغني على الفقير، والمتعلِّم على الجاهل، والمنفق على المُقتر، والطامح على القانع، وفي مختلف العصور رأينا الدول القوية كيف تفترس الكيانات الضعيفة. وأمرَ اللّٰهُ عَزَّوَجَلَّ المسلمين بالأخذ بأسباب القوّة الصلبة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

أما القوَّة الناعمة فللإسلام الصدارة والجدارة، فقوَّته الروحية باقيةٌ محفوظة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. ومهما كان للحضارات الأخرى من قوّةٍ ناعمة فإن الحضارة الإسلامية غالبة. جاء التتار

غُزاةً للعالم الإسلامي، وأسلم قادتهم، واليوم نرى في الغرب كثيرًا من المفكرين والعلماء يُسلمون تباعًا، وتلك لعَمرُ الله القوَّة الحقيقية.

وتمتاز بلادنا أنها مصدر القوَّة الناعمة؛ ففيها بدأت تلك القوَّة العجيبة الخالدة على يد رسول الله ﷺ، فحاربها الخصوم بقوَّتهم الصلبة، فبطشوا بالمسلمين في مكَّة، واتخذوا كل الوسائل القاسية لمحاربة الدعوة، ومكروا وكادوا بالرسول ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومن ذلك التاريخ والمكر يزداد بالإسلام والمسلمين، والخوف من قوَّتهم الناعمة حاضرٌ لدى الخصوم؛ ولهذا يُشوهون الإسلام، ويعملون على صرف المسلمين عن طريقه المستقيم هذا، ويقول التاريخ إنَّ الإمام محمَّد بن سعود كان أميرًا في الدرعيَّة مدة ثمانية عشر عامًا يذود عن إمارته بقوَّته الصلبة، ولكن عندما جاءه الشيخ محمَّد بن عبدالوهاب،

واتَّحدت القوَّتان القاسية والناعمة اختفت الإمارات المتناثرة في بلادنا العزيزة، وكبُرت الدرعيَّة تلك الإمارة الصغيرة، وصار لها شأن ومهابة، وكاد الأعداء ومكروا في تلك الحقبة، فشوّهوا قوَّتها الناعمة، وزوَّروا الرسائل ونشروا الأكاذيب، وكفَّروا الشيخ محمَّد بن عبدالوهاب والدولة السعودية الأولى. لقد كانوا يعملون على إسقاط تركيا (الرجل المريض)، وتقسيم تَرِكتها بين الدول الكبرى، ولكن رأوا قوَّةً جديدةً تُشرق في الجزيرة العربية، فراعهم ذلك، فمكروا وكادوا كما هُم اليوم.

أصدر الشريف مسعود بن سعيد أحد علماء مكَّة، فتوى تكفير الشيخ محمَّد بن عبدالوهاب، وبعث نصَّ فتواه إلى دار الإفتاء في إستانبول لتأييدها، وبعد سنة أعلن أشراف مكَّة من خلال إصدار بيان أنَّ الجهاد ضد محمَّد بن عبدالوهاب هو «ضرورة دينية وسياسية»، وجاء في وثيقةٍ أخرى عن دخول الإمام سعود بن عبدالعزيز إلى مكَّة: «أنه نادى المنادي في الأسواق

والمآذن بأمره: [ادخلوا في دين سعود، وتظلّلوا بالظلِّ الممدود]»[1].

واستثار خصوم الدولة السعودية الأولى بحملاتهم الإعلامية العالم ضدَّها، ودفعوا بالقوات المصرية يقودهم إبراهيم باشا ابن الحاكم الفعلي المصري محمَّد علي باشا، ومعهم تركيا ومن وراء الستار إيران المجوسية وبريطانيا الصليبية، وكان ما كان من سقوط الدولة السعودية الأولى، ولقيَ العلماء أشدَّ أنواع العذاب والتنكيل، فهُم قَادة القوَّة الناعمة، وأحسبُ أنَّ خصوم الدولة السعودية الأولى وإعلامهم أقوى، فنجحوا في تعطيل قوَّتها الناعمة بتشويه حقيقتها، فلم تتمكن تلك القوَّة من المشاركة في المنازلة، وكَشف كَذِب الأبالسة، ومَكْر الشياطين.

إن خصوم الإسلام والمسلمين منذ عهد النبوة لن يَرضوا بأي تسامح إلا أن تتّبع ملتهم. قال تعالى:

(١) وثائق نجد، ص ١٣٩.

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة: ١٢٠]، هذا وإني أعلم أنَّ قادة الدولة السعودية ذلك الوقت وإلى الآن يُدركون ضرورة التعايش مع القوى المحيطة، ويعرفون إمكاناتهم، تِلكم الدولة السعودية الأولى بدلًا من تفعيل قوَّتها الناعمة فقد حُوربت بتشويه تلك القوَّة، وشلَّ الخصوم حركتها، وفي ذلك دروسٌ للمتأخرين.

ودارت الأيام، وجاءت الدولة السعودية الثانية، وكانت القوَّة الناعمة حاضرة عند إعادة الدولة مرةً ثانية، لكن الخصوم يَرقبون ويكيدون؛ ولهذا ما إن استقرت وعادت لها قوَّتها حتى جاؤوا بالأمير خالد بن سعود وقد أعدُّوه وفق قوَّةٍ ناعمةٍ يرون تطبيقها في بلادنا، فأبى المجتمع السعودي، ورفضوا ذلك المنهج الوافد، وكاتبوا القوَّة الصلبة التي جاءت به، وطلبوا تغيير الأمير السعودي الذي سلك طريقًا غير طريق أجداده، وعندما لم يجدوا استجابة أسرعوا

للأمير السعودي الثاني عبدالله بن ثنيان آل سعود الذي أعلن استنكاره منهج الأمير خالد، والعودة لقوَّة الأوائل الناعمة ومنهجهم الفكري الأصيل، فكان أن خسر الأمير خالد مركزه، وقد أطلق السعوديون على الأمير خالد لقب (الأفندي)؛ وذلك سخريةً منه، وإلا فالحاكم لقبُه (الإمام)، وله الوقار والمهابة، وألقاب قادة الدولة السعودية الأولى والثانية هي (الإمام)، فقد كانت مجالسهم عامرةً بالعلماء، وفيها تُعرض الدروس العلمية، ومن هنا كانت القوَّة الناعمة رداءً آخر للإمام، فذاك الإمام تركي يتغنَّى بسيفه الأجرب فبه حصّن نجدًا، ولكن في القصيدة نفسها يشدو بدروس الضحى التي يقرؤوها كل قارئ:

إذا كل خوي من خويِّه تَبرَّا
حملت أنا الأجرب خويًا مباري

وحصَّنت نجد عقب ما هي تطرَّا
مصيونةً عن حر لفح المذاري

والشرع فيها قد مشى واستقرَّا
ويقرأ بنا درس الضحى كلُّ قاري

إنَّ هذا التاريخ للقوَّة الناعمة في الدولة السعودية الأولى والثانية يحكي دورها في ثبات الحكم وقوَّته، ويقُصُّ مواقف الخصوم من تلك القوَّة الغالبة.

وجاء الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأقام صروح الدولة السعودية الثالثة، واعتنى بالقوتين الصلبة والناعمة، فوحَّد الوطن بيد، ونشر العلم بيد، وأسس الهِجر، وحضَّر البادية، ورفع راية الدين محليًّا وخارجيًّا، وأعلن التزام المملكة بالشريعة الإسلامية، وأنه صغيرٌ أمامها، ممتثلٌ لأحكامها، يقول الشيخ حمد الجاسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه القوَّة الناعمة التي استطاع الملك عبدالعزيز أن يوظِّفها خير توظيف، وينقل بلاده نقلةً نوعية: «بعد أن كانت البادية تعيش عيشةً فيها من الشقاء والجهل الشيء الكثير، حدث في عهد الملك عبدالعزيز -وبسعيٍ وعملٍ واتجاهٍ منه إلى البادية- أوَّل استقرارٍ لكثيرٍ من القبائل التي كانت تعيش في الصحراء على وسائل هي أقرب إلى الوسائل البدائية، فأخذت بطَرَفٍ نافعٍ من التحضُّر والاستقرار، ومن ثمَّ قَوِيَ الارتباط بين العنصرين

القويين من عناصر الأمة، وذلك بواسطة التحضُّر، وبدأت النزاعات القبلية -التي كانت في يومٍ من الأيام من أشدِّ ما كان يهدِّد الحياة في الجزيرة- بدأت تلك العناصر الموغلة في القِدم تزول شيئًا فشيئًا، حتى أصبحنا في عصرنا الحاضر لا نحسُّ لها أثرًا، فزال -بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم بسعيٍ من الملك عبدالعزيز- من بلادنا أعظم كابوسٍ كان يحول دون الاستقرار، وكان يُوجِد بين سكان هذه البلاد من الفوضى والتفرُّق والبغض والمقاطعة ما كان يجرُّ إلى كثيرٍ من الأمور المسيئة، وبقيام الملك عبدالعزيز زال عن الأمَّة هذا الكابوس الذي هو أسوأ مرضٍ كان سكَّان الجزيرة يئنُّون من ثِقَله ومن شدَّة إصابته، ومن شدَّة فتكه»[1].

ومنذ بداية توحيد المملكة والملك عبدالعزيز يهتم بالتعليم، ويرنو للعلماء، ويمنحهم المكانة والدور الريادي، فهم طاقة القوَّة الناعمة، يقول حافظ وهبة: «وعلماء الدين في نجد أكثر اطِّلاعًا في الفقه وغيره

(١) دراسات وبحوث في تاريخ الملك عبدالعزيز، ص ٤٥.

من العلوم الإسلامية من غيرهم من علماء الكويت والبحرين وعمان، وسيرتهم في القضاء والإفتاء تُشبه سيرة العلماء المتقدمين، كما أنَّ حياتهم الشخصية في الورع والزُهد تشبه سيرة علماء السلف المسلمين، لا تأخذهم في الحقِّ لومة لائم. وعلماءُ نجد أشجع علماء جزيرة العرب ولا يُبالون في سبيل الحق»[1].

لقد كانت شخصية الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فريدةً، وظَّف القوَّة الناعمة مع القوَّة الصلبة، لكن بتدرجٍ ورفق، لقد ملك برفقه وتعامله القلوب، واستطاع استقطاب خيرة العقول، وجعلهم كبار مستشاريه، وكان العلماء معه في حروبه، فكانت القوَّتان الصلبة والناعمة حاضرتين معه في كل أمورها.

يقول الريحاني مخاطبًا الملك عبدالعزيز في رجب ١٣٤٥ هـ: «يا طويل العمر: منذ عهد الخليفة عُمر حتى بداية عهدكم السعودي لم يسعد العرب بمن يجمع شملهم، ويوحد كلمتهم، ويعزِّز شؤونهم، فيجعلها تحت

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين، ص ١٢٨، ١٢٩.

السيادة التي فيها الخير الأكبر للجميع؛ أي السيادة العربية الواحدة.

كان في بني أمية معاوية، وفي بني العباس المأمون، وفي الأيوبيين صلاح الدين. ثلاثةٌ من عظماء العرب، بل من عظماء الرجال في التاريخ العام، ولكنَّهم وإن وصلوا إلى ذرى المجد، ورفعوا أعلام العرب في أقاصي البلدان، لم يتمكنوا من بسط سيادتهم على شبه الجزيرة كلها، ولا كان يهمهم العنصر الأكبر فيها؛ أي البدو، إلا كحطبٍ للحروب.

ما استطاع الأمويون أن يوفِّقوا حتى بين القيسية واليمانية في الشام، ولا استطاع العباسيون أن يبسطوا نفوذهم حتى على عشائر الأحساء، وما فكَّر صلاح الدين -على ما يظهر- في تحسين أحوال البدو ونزع العداوات المتأصلة بينهم.

ولَّت الألف والثلاث مئة سنة وهؤلاء العرب لا يزالون، كما كانوا، وما غيَّر الزمان شيئًا في أحوالهم

المدنية أو بالحري البدوية، ولا علم فيهم عامل من عوامل التطور الاجتماعي.

ألفٌ وثلاث مئة سنة؟ حتى كُتب لهم بعُمَرٍ ثانٍ، بُعث إليهم بعبدالعزيز بن سعود ليجمع شملهم، ويوحد مقاصدهم، ويعزز جانبهم، ويؤسس ملكًا عربيًّا هو منهم، وهو فيهم، وهو لهم.

يا طويل العمر، إنَّ ما قُمتم به من تحضير البدو، وتأسيس الهِجر لمِن أمجد مآثركم القومية، ومن خير أعمالكم الإصلاحية. غير أنَّ هناك عملًا آخر فيه كذلك الخير الجزيل، بل فيه الخير الشامل للعرب.

كانت الهجرة الأولى، هجرة البدو، من الشرك إلى التوحيد في الدين، ومن البادية إلى الحضارة. فعسى أن تكون الهجرة الثانية من الأمِّيَّة إلى الألفباء، من الجهل إلى العلم، من الظلمات العقلية إلى النور.

بنيتم -يا طويل العمر- البيوت للبدو، وهي الخطوة الأولى في تمدينهم، فعسى أن تخطو الخطوة

الثانية فتبنوا لهم كذلك المدارس؛ لأن في المدارس تحقيق كلِّ ما تنشدون، المدارس تكمل عمل السَّيف، المدارس تمهِّد السَّبيل إلى الوحدة العربية الثابتة، الوحدة الشاملة، الوحدة العزيزة الوثيقة العُرى»[1].

ولو رأى الريحاني واقع المملكة اليوم وإنفاقها على التعليم، وكيف منحته أولويةً في الإنفاق؛ لأدرك أن اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اختصَّ بلادنا بقيادةٍ مباركة همُّها رخاء المجتمع السُّعودي، واستقراره، وتطوُّره.

لقد تتابع أبناء الملك عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يسيرون وفق منهج المؤسس ومنهج الدولة الذي قامت عليه منذ قرابة ثلاثة قرون. صدر النظام الأساس للحكم بالأمر الملكي رقم (أ/٩٠) في ١٤١٢/٨/٢٧ هـ، فكانت مادَّته الأولى: أنَّ المملكة دولة عربية إسلامية ذات سيادةٍ تامَّة، دينها الإسلام، ودستورها كتاب اللّه تعالى وسُنة رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغتها هي العربية، وأكَّدت المادة السابعة أنَّ الحكم في المملكة يستمدُّ سلطته من كتاب

(١) تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ص ٨، ٩.

اللّٰه تعالى وسنة رسوله، وهما الحاكمان على نظام الحكم وجميع الأنظمة. وتؤكِّد المادة السابعة أنَّ هدف التعليم غرس العقيدة الإسلامية في نفوس الناشئة، ويستوجب ذلك تربيتهم على الاعتزاز بهويتهم ولغتهم، والفخر بتاريخهم الإسلامي والوطني، وجاءت المادة الثالثة والعشرون لتؤصِّل القوَّة الناعمة التي يُحاربها الخصوم، ويجهلها السطحيون الذين يستخفُّهم كيد الأعداء ومكرهم، تقول المادة: «تحمي الدولة عقيدة الإسلام، وتُطبِّق شريعته، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتقوم بواجب الدعوة إلى اللّٰه».

إنَّ هذه المواد تاجٌ في النظام الأساسي للحكم السعودي، لكن يقوم إعلام الخصوم الماكر بتشويه منهج المملكة الفكري ورسالتها الحضارية، ويعملون على تعطيل الدعوة إلى اللّٰه، وكأن التاريخ يُعيد نفسه حين شوَّه الظَلَمة الحاقدون تاريخ الدولة السّعودية الأولى، ووصفوها بالوهابيَّة المتوحشة وتغذية الإرهاب، وها هُم اليوم يُعيدون الحملة بلونٍ آخر، ويعملون على تعطيل قوَّة المملكة الناعمة، قاتلهم اللّٰه.

إنَّ قوَّة المملكة الناعمة تفوق كل قوَّة، إنها القوَّة الجاذبة، تجتاح القلوب وتكسب النفوس، فرسالة الحرمين الشريفين للعالم رفقٌ ومحبَّة. فمجمَّع الملك فهد للمصحف الشريف، وأخيرًا مجمَّع الملك سلمان للحديث النبوي، هذان المجمَّعان يهديان للعالم ملايين النسخ من القرآن الكريم والسُّنة النبوية مع ترجمة معانيهما، فيقدِّمان للبشرية أصدق العلوم وأصَحَّها، وأفضل الكتب وأشرفها. وزوار الحرمين وضيوفهما يرون الشرف والمحبَّة، ويسمعون الكلم الطيب والقول الحسن ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصّلت: ٣٣]. إنّ تلك القوَّة -لعمر الله- أمضى القُوى وأورثها. إنَّ الواحد من أئمَّة الحرمين الشريفين حين يزور إحدى الدول يرى ملايين البشر يتدافعون للصلاة خلفه، إنَّ هذه القوَّة المؤثِّرة هي التي يسعى الخصوم إلى تشويهها، وتعطيل رسالتها. وخاب مسعاهم.

والحمد لله ربِّ العالمين.

المصادر والمراجع

- الأسس التاريخية والفكرية للدولة السعودية الأولى، سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٣٣هـ.
- بناء الدولة (الخدمة العسكرية ودورها في تطوير الاقتصاد الإسرائيلي)، دان سينور وساول سينجر، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الطبعة العربية الأولى، ٢٠١١م.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، لأبي جعفر محمَّد بن جرير الطبري، تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- تاريخ الفاخري، لمحمَّد بن عمر الفاخري، تحقيق: عبدالله يوسف الشبل، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- تاريخ مكة، أحمد السباعي، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ.
- تاريخ المساجد والأوقاف القديمة في بلد الدرعية إلى عام ١٣٧٣هـ، راشد بن محمَّد بن عساكر، دار درر التاج للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبدالرحمن الجبرتي، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٠م.
- تاريخ نجد الحديث وملحقاته، أمين الريحاني، المطبعة العلمية ليوسف صادر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٠م.
- تاريخ نجد ودعوة محمَّد بن عبدالوهاب السلفية، جون. فيلبي، ترجمة: عمر الديسراوي، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
- جزيرة العرب في القرن العشرين، حافظ وهبة، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٥٦م.
- خمسون عامًا في جزيرة العرب، حافظ وهبة، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- دراسات وبحوث في تاريخ الملك عبدالعزيز، حمد الجاسر، عناية عبدالرحمن الشبيلي، إصدارات مركز حمد الجاسر الثقافي، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.
- الدولة السعودية الأولى، عبدالرحيم عبدالرحمن عبد الرحيم، دار الكتاب الجامعي الطبعة السادسة، ١٩٩٧م.
- رحلة ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة، عناية د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥م.
- رحلة ابن جبير، ابن جبير، دار صادر، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢م.
- الرحلة الملكية، سعادة الشيخ يوسف بن ياسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جمع وتنقيح عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله آل الشيخ، المكتبة المكِّيَّة،

مكَّة المكرَّمة، السُّعوديَّة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- رحلة إلى الرياض في عام ١٨٦٥م، اللفتنانت كولونيل لويس بيلي، ترجمة: أحمد إيبش، هيئة أبوظبي للثقافة والسياحة، دار الكتب الوطنية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود محمَّد شاكر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦م.
- روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، دار الساقي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق شلبي الإيياري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
- الشيخ العلامة أحمد بن عطوة وجهوده في الدفاع عن عقيدة السلف، تأليف: علي بن عبدالعزيز الشبل، شبكة الألوكة.
- الطبقات الكبرى، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- عالم نجد ومفتي العارض أحمد بن عطوة الدرعي (ت ٩٤٨)، نشأته، مؤلفاته، فتاواه، رحلاته، أوقافه، راشد بن عساكر، مجلة الدارة، ع ٤، س ٣٦، شوال ١٤٣١هـ.

- عنوان المجد في تاريخ نجد، للشيخ عثمان بن عبدالله بن بشر، تحقيق: عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- قصة الأشراف وابن سعود، علي الوردي، دار الورَّاق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- لسراة الليل هتف الصباح، عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- مجلة الهلال المصرية، طه حسين، العدد مارس١٩٣٣م.
- محمَّد بن عبدالوهاب (مُصلح مظلوم ومُفترَى عليه)، مسعود الندوي، جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، مارس ١٩٧٧م.
- مذكرات يوسف ياسين ١٨٩٦ - ١٩٢٤م في مسيرة الحركة العربية، يوسف ياسين، إعداد وتعليق قاسم بن خلف الرويس، منشورات ضفاف، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.
- مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمَّد بن خلدون، مكتبة لبنان، طبعة باريس، ١٨٥٨م.
- ملامح إنسانية من سيرة الملك عبدالعزيز، سلمان بن عبدالعزيز، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٣١هـ.
- ملوك العرب رحلة إلى البلاد العربية، أمين الريحاني، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨٧م.
- من شيم الملك عبدالعزيز، فهد المارك، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨م.

- وثائق نجد، علي موجاني، دار التراث النجف، العراق، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
- الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، الطبعة الخامسة، ١٩٨٨م.

القُوَّتان!

سأل: لماذا توسَّعت إمارة الدِّرعيَّة في عهد الإمام محمَّد بن سعود مع وجود إمارات أخرى تنافسها الزَّعامة، ولديها علماء أخذ عنهم الشَّيخ محمَّد بن عبدالوهاب؟ زار الشَّيخ محمَّد الأحساء والحجاز، ومكث مدة ينهل من معين العلماء هناك، ولم تنل تلك الإمارات وحكَّامها ذلك المجد! ولماذا لم تتوسَّع إمارة الدِّرعية زمان أجداد الإمام محمَّد بن سعود مع وجود علماء مشهورين في ذلك الوقت كالشَّيخ أحمد بن يحيى بن عطوة العُييني توفي سنة ٩٤٨هـ ودُفن في الجبيلة على مقربة من الدرعية؟

يحاول هذا الكتاب الإجابة عن تلك التَّساؤلات، ويستعرض حال القوَّتين؛ الناعمة، والخشنة في مراحل الدولة السُّعودية الثلاث.

المؤلف

صدر للمؤلف

ISBN: 9786035092982
9 786035 092982
- السعودية
- تاريخ
نلهم المعرفة
Inspiring Knowledge
Obeikan Reader
@ObeikanPub
العبيكان للنشر
Obeikan Publishing